العقلُ

مِن اللاشيءِ إلى الشيءِ دراية

أ.د. عقيل حسين عقيل

2021م

العقلُ

(مِن اللاشيءِ إلى الشيءِ دراية)

تأليف

أ د. عقيل حسين عقيل

2021م

جدول المحتويات

العقلُ دراية وارتقاء 6

العقلُ بلا دراية:.....27

العقل إدارة عامَّة:.....32

العقل من الأميَّة إلى الدّرايةُ:.....47

العقلُ دراية اقرأ:.....63

العقلُ دراية من المستحيلِ إلى الممكنِ:.....71

اللاشيءُ دراية عقليّة:.....77

الشيءُ دراية عقليَّة:.....91

الفراغُ دراية عقليّة:.....99

الفراغ حاضنة الأشياء:.....105

الكونُ شيئًا عظيمًا:.....108

الدِّراية الكونيَّة خلقًا:.....120

الدِّراية الوجوديَّة عقلًا:.....121

الدّرايةُ أثر لعدمٍ:.....128

موتُ الموت درايةً:.....135

الدّراية العقليَّة للوجود نشوءً:.....150

الدِّراية العقليّة للانفتاق العظيم:.....156

الدِّرايةُ بالانفتاقِ العظيم:.....163
الدّرايةُ بالشيء ونشوؤه:.....171
دّراية النّشوء البشري:.....178
العقلُ دراية بين قوّة وضعف:.....190
الدِّراية العقليَّة بين بداية ونهاية.....194
الدّراية العقليَّة بين متعرفٍ وغير متعرفٍ.....204
المتعرّف عليه:.....204
غير المتعرّف عليه دراية:.....205
صدر للمؤلّف 206
المؤلّفات.....207
المؤلّف في سطور.....225

المقدِّمةُ

العقلُ من اللّاشيء إلى الشّيء دراية مساحة معرفيَّة واسعة تتمدَّدُ مع تمدّد الكون تذكُّرًا لماضٍ لا ينبغي الغفلة عنه، وتدبّرًا لحاضرٍ يُمكِّن من إحداث النُّقلة العابرة مع الزَّمن والطاوية له، وتَفكُّرًا فيما يجب بغاية بلوغ المستقبل المأمول ونيله علمًا ومعرفةً ودرايةً.

وفي لحظة من لحظات النُّقلة العظيمة دقّت ساعة السَّماء لِتُعلن محو الأميَّة من عقلِ محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام– وتُنبئ بالبديل المنزَّل منارةً في عقله؛ تَرشد إلى الحقّ يقينًا، وتكشف أسرار الكون، وتُعظّم قيمة الإنسان، وتُعلن الايمان بالله وحده.

إنَّها النُّقلة من اللاشيء أميَّة إلى الشيء دراية علمًا ومعرفة بغير معلّم، ولا دراسة مدرسيَّة، ولا جامعيَّة، ولا بحث علمي، بل بالأمر: (اقرأ) نُسِخت الأميَّة ومُحيت تمامًا، وحلَّت الدّراية محلّها نورًا في عقل محمَّد؛ فأصبح يدري بعد أن كان أمّيًّا لا يدري؛ فعلَّمَ، وأنذرَ، وبشَّرَ، وحرَّضَ، وأمرَ، ونهى، بكل ما من شأنه يكشف العلاقة بين السّماوات والأرض ويقرّ العدالة بين النَّاس ولا إكراه.

ولأنَّ موضوع مؤلّفنا: العقل (من اللاشيء إلى الشيء دراية) فقد بحثنا بموضوعيَّة، حتى تمكنَّا من معرفة ما يُميّز بين العقل دراية، ومعرفة الشيء، واللاشيء خلقًا، ووجودًا، وموتًا، وعدمًا، وبعثًا.

ثمَّ أجرينا مبحثًا ميَّزنا فيه بين العقل والأميَّة والدّرايةِ كما ميَّزنا بين العلم، والجهل، والمعرفة، ثمَّ بيَّنا كيفيَّة إحداث النُّقلة من الأميَّة إلى الدّراية، ومن الجهل إلى العلم، ومن اللاشيء علم يقين إلى الشيءِ حقّ يقين وعينه.

ولأنَّ موضوع بحثنا متمركزٌ على العقل درايةً فبه بيّنَّا العلاقة الكونيَّة بين الشّيء واللاشيء وجود: (تمدّدًا وانكماشًا)، حتى تمكنَّا من كشف اللبس والغموض الذي شاب نظريّة الانفجار العظيم، ومن ثمَّ بيّنا الفارق العلمي بينها والانفتاق العظيم.

ولأنَّ موضوع هذا المؤلّف: (العقل من اللاشيء إلى الشيء دراية) فقد عرفنا العلاقة بين المستحيل والمعجز والممكن، كما عرفنا العلاقة بين الفراغ والخلاء والفضاء داخل الكون الواحد، وما بين الأكوان طباقًا.

أ د. عقيل حسين عقيل

إسطنبول

2021م

العقلُ دراية وارتقاء

العقل دراية مقدرة واسعة تكشف العلاقة بين السّماوات والأرض من خلال استيعاب المعجز، ومعرفة المستحيل، والبحث الممكِّن من اكتشاف المتوقّع وغير المتوقّع، فالعقل دراية وارتقاء قيمة تفضيليَّة خصّ الله بها الإنسان خَلقًا وخُلقًا فهو في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمّا في خُلقه فينبغي أن يكون على الفضائل الخيّرة التي فضّلها الله، وعلى القيم الحميدة التي ارتضاها النَّاس: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[1].

نعم. إنَّه التفضيل للإنسان الذي يمشي سويًّا على صراطٍ مستقيم، والذي شاء الله أن يكون خليفته في الأرض؛ ولذا فالفرق كبير بين من يمشي مكبًّا على الأوجه ومن يمشي سويًّا (مقوّمًا)؛ ذلك هو أمر الخالق ومشيئته التي شاءت التفضيل لمن يمشي سويًّا على غيره من المكِبّين؛ إنَّها الفضيلة الباقية التي لا تتبدّل؛ كونها صُنع الخالق، أمّا المتبدّل فهي الأخلاق التي لا تكون إلَّا بيد المخلوق.

ولذا فلا إمكانيَّة لتلك المخلوقات المكِبّة والزَّاحفة أن تتطوّر وترتقي كما يظنّ بعض البحّاث لتصبح غير زاحفة، أو غير مكبّة الأوجه، وفي المقابل

[1] الملك: 22.

يمكن للإنسان الذي يمشي سويًّا أن ينحدر خُلقًا فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقًا، أي: يُمكن أن تصبح أخلاق الإنسان سُفليَّة ودونيَّة، أمَّا خَلقه فسيظل في أحسن تقويم، ولن يتبدّل.

وهذا ما حصل مع الإنسان الأوّل (آدم) عليه السَّلام الذي خُلق في أحسن تقويم ولم يُخلق على الكمال، إنَّه الإنسان الذي خُلق مسيّرًا ومخيّرًا (يصيب ويخطئ)، وبين هذا وذاك يستغفر فيُتاب عليه.

ولأنَّ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن رُقيًّا فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب ألا يصحّح ولا يقوّم، كما صحّحه أبونا آدم، وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة كشف علله دراية: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[2]؛ ذلك لأنَّ الكلمات الصّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة دراية تامَّة وكاملة، وهذه تتعلّق بارتقاء الأخلاق ولا تتعلّق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

ومن ثمّ في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لا بدّ وأن يقع الإنسان في الخطأ، أمَّا الاستثناء في دائرة الممكن ألَّا يُصححه، ولهذا أخذ أبونا آدم بالقاعدة، وهي: متى ما وقع الخطأ وجب التصحيح الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصّائبة دراية.

وعليه:

فالارتقاء قيمة خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[3]؛

---

[2] البقرة: 37.

[3] الأنبياء: 30.

ولأنَّ الإنسان الأوّل خُلق من تراب الأرض المرتقة في السّماء جنّة، كان خَلقهُ في أحسن تقويم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[4].

ولذا فأساس خَلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمَّا الاستثناء ألَّا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه خَلقًا، وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: ألَّا يأكلّ من تلك الشّجرة: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[5].

ومن هنا جاء انحدار أبينا آدم عوضًا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خَلقًا: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[6]؛ حيث الهبوط على الأرض التي فُتقت من السّماوات فأصبحت أرضًا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍّ (في السّماء)، ولكن آدم الذي خُلق على حُسن التقويم فبعد الدراية تدارك أمره فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[7]، ولهذا فقد استثني آدم من الوجود السُّفلي كونه تاب الله عليه بسبب استغفاره ورُقي إيمانه: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}[8].

---

[4] التين: 4.

[5] البقرة: 35، 36.

[6] التين: 5.

[7] البقرة: 37.

[8] التين: 6.

وعليه:

فالإنسان الأوَّل (آدم) كونه قد خُلق في أحسن تقويم فتقويمه الخَلقي لم يتغيّر، بل الذي تغيّر هو عدم أخذه بما يبقي الأخلاق ارتقاء؛ وذلك حينما أخذ بما يغوي، وهو المنهي عنه: (ألَّا يأكل من تلك الشّجرة)، فحاد آدم عن الخُلق الذي هو بيده تخييرًا، ولكن لم يحدّ عن خَلقه المقوّم تسييرًا؛ إذ لا إمكانيَّة له في ذلك (إنَّه صُنع الله).

ولذا فالارتقاء عقلًا لا يكون إلَّا كيفًا؛ كونه يتعلّق بالدّراية لا بالماديَّات، وهكذا حال النُّقلة التي لا تكون عقلًا إلَّا عن معرفةٍ وعلمٍ، وهي تختلف عن النَّقلة التي لا تكون إلَّا مادَّة.

إذن: فالارتقاء عقلًا لا يكون إلَّا وعيًا، وبه يتم التمييز بين ما يجب وما لا يجب، وبه دراية يتم الاقدام على ما ينبغي، والانتهاء عمَّا لا ينبغي، ومن هنا تتحقق الرّفعة بكل ما يؤدّي إلى النُّقلة إلى الأفضل والأنفع والأجود، أي: إنَّها تتحقّق بالتخلّي عن كل ما يؤدّي إلى السُّفليَّة والدّونيَّة.

ومع أنَّ خَلق الإنسان جاء على الرّفعة خَلقًا، فإنَّه أخلاقًا يقع فيما يؤدّي به إلى الدُّونيّة والسُّفليَّة؛ ولذا فلا ارتقاء إلَّا بفضيلة حميدة أو قيمة خيِّرة، ولا دونيّة إلَّا بالتخلّي عن الفضائل والقيم.

ومع أنَّ أمر الارتقاء الآدمي جاء خَلقًا مميّزًا عن غيره من المخلوقات وبقي متميّزًا وسيظل، فإنَّه أخلاقًا انحدر سُفليَّة؛ ذلك لأنَّ أمر الخَلق بيد الخَالق جلَّ جلاله، أمَّا أمر الأخلاق فبيد المخلوق الذي خُلق على التسيير

خلقًا، وتُرك له التخيير فيما يشاء إرادة سواء أكان ما يشاءه دراية عن فضيلة وقيمة، أم ما يشاءه بلا فضيلة ولا قيمة.

ولأنَّ الخَلق بيد الخالق فلا تخيير، ولأنَّه لا تخيير فسيظل من خُلق مكبّ الوجه مكبًّا، وسيظل الزّاحف زاحفًا، وسيظل من يمشي سويًّا على قوامه في أحسن تقويم، ومن ثمّ فسيظل القرد قردًا، والإنسان إنسانًا، والسّمك سمكًا.

ونظرًا لأهميَّة الإنسان في الوجود الخَلقي جاء خَلقه من عجلٍ: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}[9] والعجل هو الشيء الذي نجهله صفة، وندركه شيئًا، فقوله: (من عجلٍ) أي: من شيء مميّز، ولم يقل: (على عجلٍ) أي: لم يقل (على تسرّعٍ)؛ فالخالق تعالى يخلق بالأمر لا بالجهد، ولهذا فخلقه لا تسرّع فيه، ولأنَّه لا تسرّع، قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[10]. مع العلم أنَّ العَجل في كلام أهل حمير يعني: الطّين، وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ}[11]، والسّلالة هي: النّوعيّة الرّاقية من طين الجنّة حيثما كانت الأرض مرتقة مع السّماوات في علاها؛ وذلك لأنَّ خَلق الإنسان لم يكن على الأرض الدُّنيا، بل كان خَلقه على الأرض قبل أن تُفتق عن السماوات، ويُهبط بها دُنيا، ولهذا فالسّلالة تدلّ على أصل الخلق الآدمي من تراب الأرض المرتقة في السّماوات؛ حيث رُقي طين الجنّة.

---

[9] الأنبياء: 37.

[10] التين: 4.

[11] المؤمنون: 12.

ومن هنا فسلالة خَلق الإنسان خاصّة به، والسّلالة تعني الجودة الرّاقية ذات الخاصيّة المتميّزة (جنسًا ونوعًا)؛ ولذا فلا عجل، ولا عبثيَّة في خَلق الإنسان الذي خُلق من طين الجنّة، والذي جودته تصلصل ارتقاء: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[12].

ولأنَّ الإنسان الأوَّل (آدم) قد خُلق في أحسن تقويم فهو من حمإ مسنون (من مادّة ذات جودة عالية)؛ إذ لا شائبة، ومن ثمّ فلا طين يماثلها، فالطّين الذي خُلق منه الإنسان من صلصال (أرقى أنواع الطّين).

ومن هنا خُلق الإنسان مُفضّلًا على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة والجنّ: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[13].

ولأنَّ الإنسان هو المفضّل خَلقًا، وله ملكات العقل الدَّارية، فعلّمه الله نبأ ما لم يعلمه الملائكة: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[14].

---

[12] الحجر: 26.

[13] البقرة: 30.

[14] البقرة: 31 . 33.

ولأنَّ خلق آدم كان أكثر ارتقاء من غيره، سجد الملائكة إليه طاعة لأمر الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[15]، أي: بأسباب الخَلق ارتقاء وكذلك النّبأ العظيم الذي تلقاه آدم من ربّه، سجد الملائكة له طاعة للنبأ الذي أنبأه الله به.

ولأنَّ الجنس الآدمي هو المفضّل ارتقاءً، كان آدم نبيًّا للملائكة والجنّ والإنس جميعًا: (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) فلمّا أنبائهم سجد الملائكة إِلَّا إِبْلِيسَ (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ). وإلّا هل هناك من يشكّ في أنَّ الذي سجد الملائكة له لم يكن على الارتقاء مفضَّلًا؟

أمَّا الخَلق الثَّاني: فهو الخلق المؤسّس على النّطفة (الماء الدّافق): {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}[16]، وهذا الخلق هو الخَلق التزاوجي، الذي يختلف عن ذلك الخلق المصلصل، ممّا جعل السّلالة الثَّانية تختلف عن السّلالة الأولى، فالسّلالة الأولى: من طينٍ لازب، والسّلالة الثَّانية: من ماءٍ دافق مَهين: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ}[17].

ولأنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء فينبغي أن يكون عليه قمّة وكأنّه كبد الكون: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[18]، أي: خُلق الإنسان على المحبّة تميُّزًا فينبغي أن يكون عليها كبدًا تتألم مع من يتألم، وتأمل الخير مع من يأمله، وتعمل في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع على تحقيقه، وكذلك ينبغي أن

---

[15] البقرة: 34.

[16] النحل: 4.

[17] السجدة: 8.

[18] البلد: 4.

تسعد مع من يسعد، وتسعى خيرًا استقامةً واعتدالًا ولا مظالم، فتجمع ما تفرّق من أجل إعادة قيمة الإنسان وحفظ كرامته، وما يؤدّي به إلى الرّفعة والارتقاء دراية.

وعليه: تعدّ الأخلاق نتاج الفضائل الحميدة، والقيم الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف ارتقاء، فبها يرتقي الإنسان قولًا وفعلًا وعملًا ومعرفةً وسلوكًا؛ من أجل علاقات اجتماعيَّة وإنسانيَّة مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

وبما أنَّ الإنسان أساس خَلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) فإنَّ غايته الارتقاء خُلُقًا إلى ما يجب، ومع أنَّ الأخلاق بيد النَّاس، فإنَّ بعضهم يخسرها بلا ثمن؛ ولذلك فالإنسان الأوّل قد خُلق من تراب الجنّة، وظل على خَلقه سلالة بشريَّة تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده، فالإنسان هو الإنسان، ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقَّع وغير متوقَّع، فآدم وزوجه خُلقا في الجنّة من تراب الجنّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن القيم؛ حيث عدم التزامهما بالأمر النَّاهي عن الأكل من تلك الشَّجرة المنهي عنها: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[19].

ولذا فإنَّ البقاء في الجنّة بقاء فضائل خيّرة وقيم حميدة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم عليه الصَّلاة والسَّلام الذي خُلق في الجنّة

[19] البقرة: 36.

خَلقًا أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا؛ وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنَّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة فبعد أن تَلقّى آدم كلمات من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه درايةً: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[20]، ومع ذلك صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍّ وارتقاء إلى سُفليَّة ودونيَّة: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا}[21].

ولأنَّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم فهو خروج من الجنّة؛ حيث ظلّت الجنّة في العلو رُقيًّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس والجن) يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علو الجنّة ارتقاءً، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدّنيا إلّا تنزيلًا؛ لأداء مهمّة تربط أمرًا بين السّماء والأرض، ونحن نجهله فلا ندريه: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[22].

ولأنَّها الأرض الدّنيا وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء، إذن: فلا إمكانيَّة لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة، والنّاهية، والآمرة، والمحذّرة، والمنذرة، والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة؛ وذلك من أجل علاقات إنسانيَّة تنظّم

---

[20] البقرة: 37.

[21] البقرة: 38.

[22] القدر: 3 . 5.

أساليب الحياة ارتقاءً، وتُلفت المختلفين إلى ما يؤدّي بهم إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من إحداث النُّقلة وبلوغ القمّة دراية.

فَأُنزلت الرّسالات درايةً تأمر وتنهى: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[23]، بمعني: يجب أن يكون الإنسان على الأخلاق الكريمة أينما كان، سواء أكان آدم وزوجه في الجنَّة ارتقاء، أم أصبحا وبنوهم على الأرض انحدارًا، غير أنَّ الحياة العليا بعد تلك الإغواءات قد جُرّدت من النقائص والحاجات التي أثّرت انحدارًا على الإنسان الأوّل (آدم) ومَن شاركه في المعصية أو حرّضه عليها، وأصبحت الحياة هناك ارتقاءً كاملًا.

أمَّا بعد الهبوط فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر، فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا هو بغاية الاتعاظ، وأخذ العبر من ذلك الإغواء الذي كان سببًا في هبوط المخالفين من الحياة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه: (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنّة) فظلّ هذا الدّرس شاهدًا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنّة، أي: بما أنَّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنّة، إذن: فكيف لبني آدم من دخولها؟

أقول:

---

[23] البقرة: 190.

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[24].

ولأنَّ أمر الهبوط كان أمرًا حاسمًا لمخالفة جرت في الجنّة إذن: ألا يعدّ أمر الهابطين أمرًا حاسمًا في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مُخرجٍ من هذه الأزمة وأنَّ معظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدونيَّة؟

أقول:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[25].

من هنا وجب إعمال العقل دراية حتى التبيّن وعيًا دون إكراه، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر؛ ولذا وجب قول الحقّ وترك النَّاس أحرارًا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فوجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم: (جهلًا أو تعلّمًا)؛ وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء وعن دراية.

ولأنَّ الأخلاق ارتقاءً هي أساس المعاملة الحسنة فالأخذ بها عقلًا ودراية لا شكّ أنَّه يجعل الإنسان على المحبَّة، بدلًا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[26]، أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنَّ مشيئة الخالق هي الفاعلة:

---

[24] الأنعام 160.

[25] الزمر 53.

[26] يونس: 99.

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[27]؛ لذلك كان محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام داع إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق درايةً وارتقاءً، فالأخلاق تعد قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السّلوك يصبح سلوكها قمّة، ومن هنا فمن أراد أن يكون قمّة فعليه بعقله دراية.

ولأنَّ الارتقاء خَلقًا لا يكون إلَّا بيد الخالق فقد خَلق الخَالق آدم في أحسن تقويم من غير أب ولا أم (من تراب الجنَّة الصلصال)؛ إذ لا إنس من قبله، ولأنَّه كذلك جعله الله على الارتقاء نبيًّا؛ فسجد له الملائكة طائعين، إلّا إبليس، ومع أنَّ آدم قد خُلق في الجنّة والأرض مرتقة في السّماوات، فإنَّه بمخالفة أمر الخالق أُهبط به والأرض، وكذلك معه من كان سببًا في إغوائه ومعصيته، وأيضًا من قَبِلَ الإغواء معه معصية (زوجه)، وهنا تكمن العلّة التي دعت آدم ندمًا واستغفارًا وتوبةً، ولكنَّ قرار الهبوط نافذ: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[28].

ومع أنَّ آدم تاب لربّه دراية، فإنَّ توبته لم تَحُلْ بينه والهبوط على ظهر الأرض إلى الحياة الدُّنيا بعد أن كان على أرض النّعيم قمّة وارتقاء، فآدم عصى ربّه، ثمّ تاب؛ فتاب الله عليه، ثمّ اجتباه نبيًّا؛ لِيُنبئ من بُعث إليهم نبيًّا: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[29]، وهنا يكمن أمل آدم في العودة إلى

---

[27] يونس: 99.

[28] الأعراف: 24.

[29] طه: 122.

الجنَّة ارتقاءً تلك الجنَّة التي فقدها ولم يعد يراها نعيمًا على الأرض المغبرّة التي أُهبط بها أرضًا، ولكن كيف يعود آدم إلى ذلك النّعيم الوافر؟

لا سبيل له عقلًا ودراية إلَّا الاستغفار عن معصيته، والتوبة إلى خالقه؛ ففعل ذلك عن قلب؛ فاجتباه ربّه نبيًّا، وعلّمه ما لم يكن يعلم، ومن ثمَّ أدرك آدم درايةً أنَّ فرصة العودة إلى الجنّة بعد توبته أصبحت ممكنة إن عَمِلَ وأتقن عمله عقلًا ودراية.

ولذلك فَمِن بعد آدم أصبح العمل هو الممكِّن من إحداث النُّقلة وتحقيق الارتقاء دراية ورفعة، فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم لم يرها ابناه، فهما ولدا في الحياة الدّنيا (السُّفليَّة)، ولكن إنباء أبيهما أصبح بينهما حُجَّة وموعظة وعبرة، فبدأ العمل دراية وارتقاءً من أحدهما، وهو يأمل بلوغ ما أنبأه به أبيه الذي شهد ذلك النّعيم فأخذ بالنبأ وأمل الارتقاء إلى النّعيم نصب عينيه، وفي المقابل أخاه أخذته الشّهوة انحدارًا وسُفليَّة؛ فقتل أخاه في الوقت الذي يبسط إليه أخوه يده محبّة: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[30].

وعليه:

فالارتقاء عقلًا ودرايةً مؤسّس على الفضائل الحميدة والقيم الخيّرة؛ وذلك ارتفاعًا عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليَّة، حتى بلوغ

[30] المائدة: 28 . 30.

ما يُمكِّن من إحداث النُّقلة الممكِّنة من بلوغ الجنَّة عيشًا رغدًا، ومن هنا وجب عمل العقل عن دراية بالعمل المحقّق للعيش النّعيم، الذي فيه الوفرة:

. تغذي الرّوح نشوة.

. تطمئن النّفس سكينة.

. تخاطب العقل دراية.

. ترضي القلب يقينًا.

. تشبع البدن حاجة.

. تزيد الذّوق رفعةً وارتقاءً.

وعليه: فإنَّ الحياة الدُّنيا دراية عقليَّة إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا فهي حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت أوَّل ما بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارًا من بعض النَّاس، وفي المقابل يرتقي بعضهم رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه دراية؛ ولذلك فقد سعى استغفارًا وتوبة أهَّلته لأن يكون نبيًّا ينبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه، ومن ثمّ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلّا بالعمل الصّالح عقلًا ودراية.

ولذلك أصبح العمل ارتقاءً أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود، من أجل العيش الرّغد؛ ولذا فالسّاعون ارتقاء مهما بلغوا من المراتب والقمم فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم، ولهذا

وجب اتقان العمل إخلاصًا ودرايةً، حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا ورتقها في السّماء جنّة.

ومن هنا وجب العمل الممكِّن دراية من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسًا من تروس عجلة الحياة العامّة؛ ذلك لأنَّ الارتقاء الممكّن من العمل المرضي لا يُمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ ولذلك فالعمل وفقًا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ وهو: إحداث النُّقلة عن درايةٍ، وغرض عام يُحفِّز الآخرين ويدفعهم للرفعة، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية وهو لا يدري.

وعليه: فبنو آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع الارتقاء عقلًا ودراية، ومتوقَّع الدونيَّة غفلة وشهوة، ومن جهة أخرى هم يتبدّلون؛ إذ لا ثوابت فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه دراية عقليَّة واعية.

ومن ثمّ ينبغي على بني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والرّفعة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة فضيلةً، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمةً، ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار عِلَّة.

إذن: فعلى العقل الآدمي دراية أنْ يعي بإمكانيَّة بلوغ السّماء ارتقاء كلّما عمل وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ومأمولات يتم نيلها، ولكن إن أحسّ العقل وهو منفردًا بشيءٍ من التّعب، فعليه بوضع اليدين مع الأيدي صعودًا وارتقاء.

فالارتقاء عقلًا ودراية مثل المعمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة، وفكرة من بعد فكرة، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من بعده مأمول أعظم)، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة، فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، والهادمين له انحدارًا؛ ولأنَّ الخالق خلقنا على الاختلاف فلا بدَّ أن نظل عليه مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[31]، ولهذا فالصّراع والصّدام بين أهل العقول والدِّراية وبين أهل الشهوة والتمدُّد على حساب الغير سيظل ساريًا صراعًا بين حقٍّ وباطلٍ.

ولذا فإنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة خيّرة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي عقلًا ودرايةً

[31] هود: 118، 119.

أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

وعليه: فمن أجل الارتقاء قمّة ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن، فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين، ومن ثمَّ يجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف دراية وارتقاءً، ومن يضيّعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم، فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة فالنّدم دراية يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما غلبت الشهوة عقل الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي عقله دراية ارتقاء تذكّر، فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر عمل وأنتج، ومتى ما فكّر درايةً حدّد أهدافًا من ورائها أغراض، وغاية من ورائها مأمول يتم نيله.

إذن: وجب التدبُّر دراية بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين، فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بأهل العقول والدّراية، وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يُمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة، فيخلّصهم من التسوّل إرادةً وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة، فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم

عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، والمأمولات قمّةً وارتقاءً.

فرجالات الدّولة عقلًا ودراية هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنَّ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة دراية وارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كَبِروا تواضعوا، أمَّا المدّعون لذلك فهم مع كلّ هبَّة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وسُفليَّة الدَّولة ودونيَّتها.

فقيام الدّولة ورفعتها ارتقاء لا يكون إلَّا عن عقلٍ ودرايةٍ، ولهذا ينبغي أن يتم استهداف رجالات بعينهم لإدارتها وفقًا لما هم عليه من مكانة ودراية وخبرة وتجربة ومهنيّة، ومع ذلك ينبغي أن يتم اخضاعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك فهم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن الدّراية قيمًا وفضائلًا؛ وذلك أوَّلًا: بهدف إعادتهم إليها ارتقاءً، وثانيًا: محاسبة من أنحرف منهم عن قيم حَمْل المسئوليَّة التي تم اختيارهم إليها إرادة.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كرام يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنيَّة، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدًا دينيًّا، ومع ذلك فهناك من يجهل ويغفل، فيقع في فخّ مصيدة الغاوين

والمزيّنين والمضللين، التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعًا، وللتأزّم أوجاعًا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجب الدِّراية وأخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره في حاجة لمن يطفئ عنه النَّار التي بها نفسه تحترق، ومن ثمّ فمن يعتقد أنَّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها، فلا شكّ أنَّ عضَّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُّفليَّة المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب دراية ترتقي علمًا ومعرفةً وتسامحًا وخبرةً وتجربةً، فتغزوا الأرض سلامًا، والسّماء بحثًا وارتقاءً.

وعليه: فبنو آدم بلا عقل ولا دراية وبلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله فسيبقون على أملهم وكأنَّهم بلا أمل، أمَّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل فلا شكّ أنَّه

سيُسهم في إحداث النُّقلة دراية وارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا بلا عقول ولا دراية هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك لا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّين فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظًا، وعليهم بالتدبّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر دراية من أجل ما يجب حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا فهم يأملون العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه؛ ولأجل ذلك فمن آمن منهم وعيًا ودراية يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم عقلًا ودرايةً من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها؛ ولذلك هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكِّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير

وسيلة لذلك المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعًا وتمدّدًا.

وهنا أقول لبعض علماء الفيزياء وعلماء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم قد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار من الكون؛ ولذا فَلِمَ لا تتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله لعلكم ترشدون إلى المزيد من الاكتشاف العلمي عقلًا ودرايةً، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النَّاس جميعًا)، ومن هنا فإن كنتم أهل موضوعيَّة فلا يليق أن تتجاهلوا كتابًا يملأه العلم والبيّنة والدراية؛ فأنا لا أقول لكم: ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية ومن بعدها آيات.

وعليه: فالارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم هو: أملٌ قابلٌ لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمَّا الدُّنيا فهي الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة؛ ولذا فبين هذا وذاك وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى، فالتّخيير (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة يمكّن بني آدم عقلًا ودراية من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) ويمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)، فبنو

آدم عقلًا ودرايةً لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

إذن: فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة، فالله خلق أبانا آدم في النّعيم؛ ليعيش وبنوه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزَّائلة (الحياة المنقوصة)؛ حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعةً وارتقاءً.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب العمل عقلًا ودراية بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية)، ثمَّ نيل المأمول جنّة؛ ولهذا فلا ينبغي أن يرضى بنو آدم بالفقر، فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ ولذا فلو عمل بنو آدم جميعهم لما وجد الفقر مكانًا له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعا فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

العقلُ بلا دراية:

مع أنَّ مفهوم العقل يعني: الاستقامة والرّجاحة (رأيًا وعلمًا ومعرفةً ودرايةً) فإنَّ البعض من النَّاس قد مالت عقولهم وحادت عن الدّراية، فبنو آدم على الرَّغم من خَلقهم في أحسن تقويم، وعلى الرّغم من اصطفاء واجتباء

الأنبياء والرُّسُل منهم، وبعثهم إليهم فإنَّهم لم يُخلقوا على الكمال، وهنا تكمن العلّة، التي تجيز ارتكاب المخالفات والمعاصي وارتكاب الخطايا التي منها ما يُغتفر، ومنها ما لا يُغتفر؛ ولذا فهم يقعون بين اختياراتهم المسؤولة (عن دراية) وغير المسؤولة (بلا دراية)؛ ولذا فإن كانت اختياراتهم مسؤولة حفّزت ودفعت تجاه كلّ ما يحققّ لهم الارتقاء رحمة، وإن كانت اختياراتهم غير مسؤولة حفّزت ودفعت تجاه ما يؤدّي بهم إلى الانحدار والدونيَّة، ومن هنا يلد الخلاف خلافًا، فتشتدّ الخصومات والصّدامات بين من يرى المسؤوليَّة ارتقاء، ومن لا يرها إلّا انحدارًا.

ولذلك عندما تغيب المسؤوليَّة دراية، يحضر الفساد والسّلب والنّهب والغدر والاقتتال المؤدّي إلى الدونيَّة، ولأنَّ بني آدم لم يُخلقوا على الكمال؛ فكان الضّعف فيهم رغبة وشهوة؛ حيث اختياراتهم بأيديهم: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[32]، أي: إنَّ الضّعف والوهن هما مكمن العلّة الآدميَّة فمن يقوى من بني آدم ينهض ويرتقي دراية، ومن يضعف يستكين ويعوجّ انحرافًا بلا دراية، ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل الكرام يرشدون إلى ما يؤدّي إلى القوّة والارتقاء رحمة وعن دراية؛ فكان نوحٌ آية وبين يديه آيات النّهوض ببني آدم إلى ما يجب أن يكونوا عليه قمّة، ولكن معظم بني قومه كان الضّعف فيهم آية، فكذّبوه وكفروا به، وبما جاءهم به هداية وعن دراية.

فتلك الفترة التي بُعث إليها آدم نبيًّا قد انتهت، والخلاف على أشدّه بين بنيه الأوائل فبعث الله نوحًا لهدايتهم، ولكن شدّة الخلاف كانت عائقًا

[32] النساء 28.

أمام هداية كثيرين منهم، فكان الطّوفان حلًّا فاصلًا بين من اتبع الحقّ هداية ودراية، ومن ضلّ عنه ضعفًا وانحرافًا وشهوة: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[33]. فالقليل هم الأقوياء الذين ارتقوا إلى ما يُمكّن من النّجاة، أمّا أولئك الضّعفاء فغرقوا ضعفًا ووهنًا.

وظلّت الحياة بعد الطّوفان العظيم مَحبّة ومودّة بين بني آدم الذين نجوا هداية وقوّة وارتقاء دراية، ولكن لأنَّ الذين أهبط بهم ظلوا على الأرض الدّنيا على ما هم عليه من خلاف، فالخلاف بين بني آدم لا مهمة له إلّا إيقاد نار الفتنة، وهنا تكمن علّة الضّعف والوهن الآدمي؛ حيث بقاء الشّهوة والرّغبة الجامحة في نفوس من خلف بعض النّاجين؛ ممّا ولّد فيهم ما ولّد من خلافات وانحرافات وشدائد وتأزُّمات، وكأنّ الطّوفان لم يحدُث آية، فضلّ من ضلّ إلى أن بعث الله إبراهيم نبيًا ورسولًا، ثمّ بعث من بعده من بنيه أنبياء عظامًا؛ فكان خاتمهم محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام نبيًّا ورسولًا بالرّسالة الخاتمة، وللنّاس كافّة، ولا إكراه في الدّين؛ حيث تبيّن الرّشد من الغي.

أمَّا بعد انتهاء فترات بعث الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، أصبح الأمر بين أيدي بني آدم وفقا لرؤاهم ومدى ارتقائهم وأخذهم بالفضائل الخيّرة عقلًا ودراية؛ ولذا في زمن الرُّسُل لا وجود للأنظمة الحاكمة، بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباء ورسالات (أنبياء ورُسُل)، أمّا ما بعد الرّسالات والرّسُل فأصبح الأمر بين النَّاس شورى، وفقًا للإرادة والرّغبة والمقدرة والحاجة

[33] هود: 40.

والحُجَّة العقليّة وعيًا ودراية: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[34]، والشورى هنا لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ فمن شاء الحلّ فعليه به ديمقراطية وشفافيَّة بلا مكاره.

ومن هنا كان الاختلاف والخلاف في معظمه بين من يحكم من، ومن يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة عقلًا ودراية، ومن يتخلّى عنه دونيَّةً وانحدارًا، وبين من يرى الحريَّة؛ حيث لا إكراه، ومن يرها تمدّدًا خارج الحدود، ومن يرها لا تكون إلّا وفقًا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحرّية عدالة يستظل الجميع تحت مظلتها حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليّات تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين وسيظلون إلّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[35].

ولأنَّ الاختلاف لن ينتهي بين بني آدم، إذن: فسيظل بينهم حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف بعض النَّاس بعضًا، ولا استغراب أن يتصادم بعضهم مع بعضٍ، ولكن الاستغراب ألا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجّ وتدفعه تجاه الحلّ دون هيمنة ولا حرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلًّا حيثما حلّ.

وعليه:

---

[34] الشورى: 38.

[35] هود: 118، 119.

في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلّ يتنزّل على الأقوام والأمم والكافّة من السّماء، أمَّا في الزّمن الذي بعد رسول الكافة فلا نبي ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، فكلّ شيء قد أنزل، وبقي الأمر بين النَّاس شورى سواء أكان أمر النَّاس سلمًا أم حربًا، أم سياسة داخليَّة، أم سياسة خارجيَّة، ومن ثمَّ فما يتّفق عليه مَن يتعلّق الأمر بهم يُقدّر ويحترم ويعتبر، ثمَّ يُقرّ ويؤخذ به عملًا وفعلًا وسلوكًا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه؛ لكونه معوجًّا.

ولذلك فالاختلاف والخصام والجدال والصّدام في زمن الرُّسُل قد تأسّس على الفضائل الخيّرة معها أو ضدّها، وهي الفضائل التي لا تستمدّ إلّا ممّا أنزل من عند الله؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[36]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[37]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[38]. إنَّها الفضائل التي لا تكون إلَّا ارتقاءً انسانيًّا؛ ذلك لأنَّها فضائل طي الهوة التي تُختلق من الحين والحين بين بني آدم علّة وعدم دراية.

أمَّا بعد اختتام الرّسالات والرّسُل فأصبح للقيم الاجتماعيَّة تقدير ومكانة إلى جانب تلك الفضائل الإنسانيَّة، أي: أصبح للخصوصيَّة الاجتماعيَّة أهميَّة ومكانة، ولتنوّع اللغات أهميَّة ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النَّاس أهميَّة وضرورة، ومن ثمّ أصبح للدّساتير والقوانين المنفّذة لها أهميَّة مقدّرة بين الأمم والشّعوب؛ ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهمية تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيّة علّة،

---

[36] البقرة: 256.

[37] الشورى: 38.

[38] الكافرون: 6.

ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهمية ذلك سيجد نفسه شريكًا في كلّ ما يؤدّي إلى الفتن والانقسامات والصّدمات المؤلمة التي لا تكون إلّا على أيدي المعوجّين عمَّا يجب أن يكون بين النَّاس محبّة ومودّة.

العقل إدارة عامَّة:

العقل إدارة عامّة يدير الحواس كما يدير المدركات، ويدير المجرّد والمحسوس والمشاهد والملاحظ، ويتدبَّر ويتذكَّر ويفكّر، ومع أنَّ العقل مركز الإدارة فإنَّه لا يتولى تنفيذ كلّ شيء، بل يترك التنفيذ لكلٍّ وفق اختصاصه مما يجعل الكلّ مراكز لا تدار إلّا به؛ ولهذا بالنسبة إلى مشي القدمين، فإنْ لم يُعطِ العقل حريّة الحركة للقدمين فإنَّ الخطوات لن تتبادل بمرونة، وإن حاول أحدُ مبادلتها فسيكون صاحبهما من المتعثرين؛ ولذا لن تخطو القدمان بصاحبهما خطوات ثابتة إلَّا بقرار واضح من العقل لأداء واجبات محدّدة.

إذن: الخطى عندما تطوي المسافات بقرارٍ من الإدارة العامّة (العقل) تصبح علاقة التطابق تامّة بين خطى القدمين، ورؤية العقل.

أمّا إذا أُجبرت القدمان من الغير على قطع المسافات، فلا شك أنّها ستتعثَّر عندما يحاول الآخر أن يجرُّها أو يجبرها بما لا يصدره لها العقل من قرارات واضحة ومحددة وعن إرادة؛ لذا عندما يكون قرار الإدارة العليا وفقًا لِما يجب أرادة؛ تصبح الخطوات متهيّئة ومستعدة ومتأهّبة لقطع المسافات دون تردد، ولكنّ المدير العام لا يدير شيئًا باستقلال عن غيره إلّا في حدود الوظيفة الخاصّة به؛ إذ خصّص العين للنظر واللسان للذوق والأنف للشم

والأذن للسمع، وجعل كل منها في حالة تهيّؤ لإرشاد غيره إلى ما يجب عند كلّ أمر يصدر له، كما يرشد البصر القدمين إلى السير في الاتجاه الذي يشاء العقل بلوغه، وعندما لا يكون الخوف مرافقًا لقطع المسافات تزداد القدمان ثباتًا تجاه الهدف الذي يستوجب الإنجاز، ومعها العينين تحمْل مسؤوليَّاتها تجاه ما يجب أن تقدِّمه للقدمين من إرشاد، مما يجعل الإنسان متمكنًا من الوقوف على أدق الأشياء بإرادة وظهورها أمام المركز برؤية واضحة، ولهذا عندما تُجبر العينان جبرًا فلا يكون للرؤية وضوح، ولا تُكشف الحقيقة أمام الإدارة العليا ما يجعل المدير العام غير قادرٍ على اتخاذ قرارات مُرضية وواضحة للأنا والآخر والوسطي وإن حاول واجتهد فيترتّب على ذلك فوضى، التي إن لم يُحسم الأمر فيها قد يشتد الصّراع ليكون فيه كلّ طرفٍ متطرِّفٍ.

ومع أنَّ العقل هو المسؤول الأوّل الذي يدير الإدارة العليا فإنَّ الإدارة العليا لا تدار به وحده فهناك القلب، وهناك العاطفة، ولكلٍّ منهما غاياته التي تمتدّ بين قوّة وضعف، فإن تطابقت رؤى المدير العام (المسؤول الأوّل) مع المساعد له (القلب) كانت القرارات الصادرة ضميريّة، تُطمئن الأنا والآخر والوسطي، وإن غَلُبت رؤى العاطفة المساعد الثّاني للمدير العام مالت القرارات إلى ما يُشبع الغرائز على حساب ما يُشبع النفس التي لا تطمئن إلّا بقرارات الضمير العادلة التي لا تغفل عمَّا يرغبه القلب وما ترغبه العاطفة ولكلٍّ حاجاته التي يجب أن تُشبع باعتدال دون أن تكون على حِساب طرفٍ من الأطراف؛ ولذا عندما تكون قرارات العقل مع الضمير حاسمة فإنَّ العينين لا تقومان بتزوير الحقائق البصريّة وإن رغبت العاطفة.

إذن: تتعدد مراكز الإدارة في الإنسان من المدير العام ومُسَاعِديه إلى الإدارات المركزيّة الأخرى وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات بها يُدار السمع بمتخصصين كما يُدار البصر بمتخصصين، والشم واللمس والذوق بمتخصصين، وكما تدار الإدارات التي تليها في الأهمية بمتخصصين بالنطق، والمشي، والرمش، وهكذا تتعدد وكلّها تقرّر ما تشاء، ولكنّ التنفيذ الموضوعي عندما يتعلق الأمر بالمراكز الأخرى لا يتمّ إلا بعلم الإدارة العامّة، ولهذا كلّما وجب ظهور المركز العام أو وجوده وجب ظهور المراكز الخاصّة، مراكز السمع والشم واللمس والذوق والبصر وغيرها، ومن يحاول أن يجعل الأمر كلّ الأمر في إدارة عامّة يجعل الحواسّ غير قادرة على أداء وظائفها التي خُلقت من أجلها ويدفع بعضها إلى التطرُّف الذي به تشوَّه الحقائق وتزوَّر فلا تُقدَّم للمسؤول الأوّل (هي كما هي) ما يجعله في كثيرٍ من الأحيان يتخذ قرارات غير صائبة وقد يتمسَّك بها ويجبر النَّاس عليها، وسواء أكان يدري أم لا يدري يجد نفسه قد دفع بعض الذين تمّ إجبارهم بغير حقّ إلى التطرُّف فكرا وتنفيذا؛ فيترتّب كرههم بغير حقّ ومقاومته بغير حقّ بأسباب المعلومات الخاطئة والمزوَّرة التي قُدِّمت للمسؤول الأوّل وترتّب عليها ما ترتّب من إجراءات غير موضوعية.

إذن: بوجود الإدارة المركز تظهر مراكز متعدّدة، ولكلّ مركز أهمية تستوجب الاعتراف والتقدير والاعتبار وفقًا للتخصص والاختصاص والخصوصية، وهكذا المراكز تتعدد بما يُمكِّن المواطنين من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليَّات، وإن لم يتمّ الاعتراف بذلك فسيكون التطرُّف من الأساليب المنتشرة بين من يريد نيل الاعتراف ومن لا يريد الاعتراف به.

فالمركز الذي يريد أن يكون على حساب طمس مراكز الآخرين سيتعرَّض هو الآخر للطمس وبكلّ الأساليب، ومن يريد من المراكز الأخرى أن تُقدِّم له التنازلات تلو التنازلات فلن يكون قادرًا على إدارة ما يُراد له أن يديره بنجاح مما يجعل الفشل مرافقًا له أينما حلّ وشتائم المواطنين تلاحقه إلى أن يرحلّ بإرادة أو يُرَّحلّ بالقوّة.

ولأن الحقوق متماثلة، والواجبات متباينة، والمسؤوليّات أعباء ثقيلة، إذن: لا يمكن لهذه المعطيات أن تكون مقتصرة على مركزٍ واحدٍ، ولكن ينبغي أن تدور حوله بقوّة جذبه لها إرادة وإدارة متماسكة.

وكما أنَّ الإنسان خُلق مركزًا في أحسن تقويم؛ فلا يتطابق مع أيّ مركز آخر في قدراته واستعداداته وخصوصيّاته الفرديّة والجماعيّة والمجتمعيّة، فهو على الأرض أين ما وجد أو وقف أو جلس هو المركز، وهكذا الآخرون كلّ منهم على الأرض هو المركز من خلال النقطة التي يكون عليها وإن تحرك إلى الأمام أو إلى الخلف أو إلى أحد الجانبين؛ فمركزه يتغير بتغيُّر مكان وجوده على الأرض أينما تحرَّك على أديمها، وبما أنَّ الأمر كذلك خَلقًا إذن: لماذا لا يكون الإنسان مركزًا أين ما وُجد؟

ولذا لا ينبغي أن يكون في الوطن الواحد مواطني العاصمة هم المركز والآخرون أطراف على الحدود مع تباين المسافات قربًا وبعدًا، بل يجب أن يكون المواطن على تراب الوطن مركزًا أينما وُجد من الحدود إلى الحدود من خلال المساواة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليَّات، التي بها تتوافر مشبعات حاجاتهم المتطوِّرة في أي مكان هم فيه مركز دون تمييز.

وعليه: فمن لا يكون من المواطنين مركزًا سيتطرف بما يدعوه إلى الرفض والتمرد، ومصطلح (التطرُّف) لشد ما نسمعه متداولًا على الألسنة بالمعنى الذي أُريد له أنّ يفهم به؛ ذلك أنَّ الذين أرادوا المصطلح بهذا المعنى يجعلون من أنفسهم نقطة الارتكاز التي يقوم عليها ميزان الحقّ والعدل بكفتيه، وفي رؤيتهم أنّهم يحققون التوازن الفكري ويميّزون الفضيلة عن الرذيلة وفق مقياس الارتكاز الذي اعتمدوه؛ ولهذا فهم يرون أنّ كلّ من ابتعد عن هذا المركز ووقف في طرف بعيد عنه يكون متطرّفا، وهذه النظرة تنطلق من الأنا التي تعبِّر عن بعض مكنونات النفس وتفكير العقل في النظرة إلى الآخر والتقليل من شأنه، ومن ينطلق من هذه النظرة فقد افترض وقوف الآخر على طرف بعيد عن المركز الوسط حسب اعتقاده.

هذه الرؤية تعد صرخة في وادٍ ما لم تحاور الآخر من منطلق تعدد المراكز، فتتباعد في هذه الرؤية مفاهيم المصطلح مما يؤدِّي إلى توطيد التباعد في المواقف، ويصبح الحوار نوعًا من الهذيان عندما تُحوَّل القضية إلى تعريف التطرّف حسب الموقع الذي تشغله الأنا في القرب منها أو البعد عنها.

وعليه: فالبحث في تعدد المراكز ضمن انساق متنوّعة بحسب الخط العمودي الذي يطرح تمظهرات يكون على أساسها انبعاث طروحات مختلفة، تعكس في الوقت ذاته المركز الواحد الذي يحاول أن يكون كما يرى نفسه مركزًا وحيدًا دون أن يحاول النظر إلى ما حوله، وهذا يتأتّى بطبيعة الحال من الأساس الفكري الذي بُني عليه الذي يحاول أن يلغي الآخر، ويضعه في مكان ليس له مكانة، وهنا تكون الأنا مكتسية بلون الانفصام الفكري الذي يلغي المسافات ويحجم الرّؤيا، مما يؤدِّي إلى انفتاق انساق جديدة يكون عليها

الآخر الذي غُيّب ولم تصبح له أي كينونة يستطيع من خلالها أن يكون طرفًا في معالجة ما يحدث وعلى كلِّ الأصعدة، فيحاول أن يلملم نفسه وأحواله وفق ما يراه، ويعيد إنتاجه ضمن النظرة التي يرى من خلالها الحلّ.

إنَّ من يرى وجوب التمركز على نقطة واحدة يكمن فيها الحلّ عائد إلى أمرين هما:

ـ السياق الفكري الذي يرى من خلاله أنَّ المركز الواحد هو الحلّ الوحيد الذي ليس له بديل مهما كانت البدائل، وهذا ما يمكن أن يسمّى بالتقوقع الفكري الذي يرى كلٌ من المركز والتطرّف أنّه الوحيد الذي يقول الحقيقة، وهذا يفضي إلى عدم تحديث الفكر ومعاودة الحوار المستند للعقل والمنطق والتجارب؛ فالتقوقع الفكري هو عدم القدرة على التغيُّر والتفهُّم والاستيعاب والتحليل والحلّ للمشاكل العالقة من معضلات ومستجدات تطوُّريَّة حاصلة، وفي مختلف مجالات الحياة الخاصّة والعامّة أيّا كانت، ويظهر المتقوقعون عاجزين أمام المتغيّرات الجديدة ومستجداتها مما يؤدِّي إلى تراجعهم، ومن ثم عدم قابليتهم وقدرتهم على التحليل والتطوّر.

ومن هنا فالتصلُّب في الفكر والتعامل والممارسة المختلفة بغير حقّ يؤدِّي إلى التقوقع الذي نهايته التراجع والوقوع في الفخّ بسبب عدم التفهُّم والإدراك للمتغيرات الحاصلة في المحيط العالمي، كما أنّ التصلُّب والخشونة في الرَّأي والممارسة تخفي عن صاحبها الخفايا، فالخشونة والتصلُّب بغير حقٍّ يؤدِّيان إلى النفور من أصحابها وبالتالي يتحولان إلى إعاقة في حركة التغيُّر والتطوُّر لديهم؛ فالخشونة والتصلُّب الفكري لا يكونان إلَّا ضدّ الآخر الذي

يتعرَّض في دائرة الممكن إلى الرفض والقبول والتغييب والإقصاء، وهنا تكمن علل المشكلة وتزداد الفجوة امتدادًا عن الآخر.

ـــ أمَّا دلالات المرونة في الفكر والممارسة على عكس ما تدلّ عليه الخشونة والتصلُّب؛ فبقدر ما يكون الأنا مرنًا يكون أكثر حكمة تجاه الآخر؛ فالمرونة تشعر الآخر بالطمأنينة كما أنَّها دليل لتفهُّم ظروفه التي بتفهُّمها يتمّ استقطابه واستدعاؤه إلى ما يجب أن يكون من أجل الجميع، وكلّما ازدادت الليونة والتفهُّم ازداد النفوذ؛ لأنّ التفهّم يراعي مصالح الجميع وحتى شطحاتهم وتطلعاتهم التي لا تشكل ضررًا على أحدٍ، فالاعتراف بالآخر والتشارك معه على البيِّنة هي القوّة الحقيقية في الصعود واستمرار البناء السليم والانسجام المتواصل في سبيل الإنجاز وصناعة المستقبل الذي فيه الأمل.

وعندما يرى الأنا نفسه أنَّه الأكبر أو الأقوى فليعلم أنّه مهما قوي أمام توحُّد قوّة الجميع لن يظلّ إلّا الأضعف أمام الجميع؛ ولذا فالأفضل للجميع ألّا يكون من جنسهم أحد كبير ومتكبِّر عليهم، والأفضل لمن يرى نفسه أنَّه الأكبر على قومه أو شعبه أن يعيد نظرته لنفسه ويقيِّمَ حاله ثم يقوِّمها بقوّة النّاس التي وحدها تستطيع أن تجعله الأكبر مكانة بينهم متى ما اعترف بأنّهم سادة وقدَّرهم بالفضائل والقيم التي قدّروه بها وجعلوا له مكانة بينهم.

أمَّا إذا تحقّقت هيمنة الأنا على الغير، فتكون هيمنته هي المضرَّة الرّئيسة في الحيلولة دون أن يفكِّر الأنا في صحة هذه الفكرة أو صلاحها أو مناسبتها أو خطئها أو فسادها، كما أنّ الفكرة أيضا تسهم إسهامًا كبيرًا في

الحيلولة دون تفكير المرء في صلاح أفكار أخرى، وهيمنة فكرة من الأفكار على عقل المرء تدل على وجود قدر من انغلاقه عن العالم الفكري الذي حوله؛ فالهيمنة الفكريّة ستار فكري يكتنف صاحب الفكرة فيحجبه عن العالم الفكري، هذه الهيمنة التي تشيع لدى الكثير من البشر في جميع أنحاء العالم أحد المكامن الرّئيسة لتمزُّق البشرية، وعلى النطاق الأصغر تمزُّق المجتمعات إلى فئات مختلفة في مجالات السياسة والاقتصاد والمعتقدات والقيم الاجتماعية والفضائل الإنسانيّة؛ ممّا يسهم في جعل عمليّة تحقيق التماسك الاجتماعي والشعبي مهمة أشق.

ومن تجلّيات انحسار الهيمنة ومظاهر الانفتاح على الفكر الآخر أن يترك المرء في فكره هامشًا لاحتمال خطئه الفكري، وأن يدرك أن الفكرة لا تتضمّن بالضرورة الحقيقة كلّها؛ لأنّ الفكرة مكوَّنة من عنصرين: ذاتي وعنصر موضوعي ذوي نسبتين مختلفتين في بنية الفكرة، بينما تشتمل الحقيقة على قدر أكبر من العنصر الموضوعي، وأن يدرك المرء أنَّه لا حكر لأحد على معرفة الحقيقة.

وبانحسار الهيمنة الفكريَّة وبالانفتاح الفكري تُمَدُّ جسور الاتصال بين الأنا والآخر، وتتعزّز ظاهرتي التغذية الفكرية والتأثير الفكري المتبادلتين، وبهذا الانحسار، وهذا الانفتاح يصبح الموقف الفكري مماثلًا أو عاكسًا لحقيقة تكوين الفكر من ذات وموضوع، وبالتالي يتمّ التقارب الفكري الذي يسهم في التماسك الاجتماعي علائقيًّا، وهو التماسك الذي يحتاجه الأنا والآخر على حدٍّ سواء.

ولذا فإنَّ إلغاء الآخر تنفرج له أسارير المتعنِّتين الذين لا يتجاوز تفكيرهم خطوات أقدامهم، فيحاولون الاقتناع بفكرة إلغاء الآخر التي تساورهم، فلا يجدونَ بديلًا عنها، ويُنصِّبون فكرهم وأنفسهم ضمن المكانة التي لا يمكن إلا الركون إليها ولا حلّ إلّا بها، والتساؤلات التي يمكن أن تطرح هنا:

ـ ألا يكون هناك بديل عمَّا يراه الأنا؟

ـ ألا يكون لدى الآخر أحد المفاتيح التي يمكن من خلالها الحلّ؟

ـ ألا يكون إلغاء الآخر علَّة مؤدّية إلى تعاظم مكانته وعلوّ شأنها؟

إنّ تمسُّك الأنا بأنّه المركز وغيره هامش، وتمسُّك الهامش بأنّه صاحب الحقّ في أن يكون مركزًا على حساب ذلك الأنا الذي يجب أن يُهمَّش، إنَّ هذه التشبّثات لن تؤدّي إلى حلّ إلّا إذا اعترفت بأن المركز حقّ للجميع مما يستوجب الالتقاء والتفاهم على إدارته بموضوعيَّة دون أن توزَّع الأدوار بما يجعل البعض ضحيَّة ولو كان من الغافلين.

ومن يرى أنَّ الحلّ لا يكون إلّا في التطرّف ذاته، فقد يكون التطرُّف شاهدًا هو الآخر على ذاته بأنّه ليس الحلّ، فكيف إذن لا يتمّ الحوار مع الفكرة قبل أن يتمّ عرضها عُملة مزوَّرة في السوق؛ فتؤدّي إلى تأزّمات مالية وتُطيح بالاقتصاد بين بائعٍ ومشتر.

ولذا فلا داعي للتجاهل فهو المؤدّي إلى إلغاء الآخرين وتحقيرهم وتغييبهم عن ممارسة الحقوق التي بها تتحقّق المنافع المشتركة دون أن يتضرر الغير، ومن لم يجد آذان مصغيَّة تسمعه وتُسهم في توفير ما يُشبع حاجاته

المتطوِّرة، ليس له بدٌّ إلّا أنّ يتطرَّف بعيدا ويتخندق لمقاتلة من كان سببًا في تهميشه وإقصائه وتحقيره وتغييبه وعدم الالتفات إليه ولو بطرفة عين.

وهنا يصبح المركز هو السّبب بإسقاط كلّ الحلّول التي من شأنها أن تلغي التطرّف وتدخله ضمن خريطة جديدة يكون على أساسها الحلّ بتعدد المراكز التي فيها يُقدّر الإنسان ولا يهان.

إنَّ تشبّث الأنا بما هو عليه وتشبّث الآخر بما هو عليه، يجعل كلًا منهما في حالة تطرُّف؛ إذ لا لين ولا مرونة ولا تقدير ولا اعتراف بما يجب، وكذلك يصبح التساوي في التشبّث بالمرتكز الذي يؤجّج نار التطرُّف في كل صغيرة وكبيرة.

ومن هنا فالتشبّث لا يؤدِّي إلى الاندماج والتوافق والانسجام والتعاون والاستيعاب ولا حتى التكيُّف، بل يؤدِّي إلى ما يظهر التطرُّف في الفكرة والقول والفعل والسّلوك مما يجعل المفاجئات الدموية مفجعة ومصارف الدّم تطالب بالمزيد.

فالتشبُّث بما لا يجب لا بدَّ أن يواجه بالرفض، أمّا التشبّث بما يجب حتى وإنْ واجهه الرفض من البعض الذي لا يُقدِّر الأنا ولا الآخر؛ فلا يمكن أن يكون للرافضين فيه حُجَّة أو مؤيِّدين موضوعيين؛ ولذلك يبطل؛ ذلك أن السياق العام للنسق الإنساني يشير إلى أن الفضائل والقيم هي المرضية لتوافقات النّاس بإرادة؛ ومع ذلك فلكلّ قاعدة شواذ.

وإذا ارتأت الأنا أنّه لا حلّ للمشكلة مع الآخر إلّا وفقًا لرؤيتها أو وفقًا لثقافتها أو لمعتقدها؛ فهي لا تملك الاتباع، ولا مفاتيح الحلّ للمشكل

الإنساني، وفي هذه الحالة توصف بأنّها أنا متعصِّبة لوجهات نظرها وأفكارها ومنحازة لرغباتها؛ ولذا لا تتمكن من تكوين علائق مع الآخر، فعلاقتها تكون ضمن المركز الذي تتمركز عليه، فهي تعيش حالة من الانكفاء والجفاء فلا تتمكن من الوصول إلى الآخر أو حتى التقرُّب منه على سبيل التعرف على أفكاره وآلامه وأحلّامه، أو حتى في طريقة تفكيره التي في كثير من الأحيان يكون على أساسها الوصول إليه ومحاولة الاندماج معه، وصهر كلّ الخلافات والمشاكل والعوائق في بوتقة إظهار الحقيقة: (نحن سويًّا) و (نحن معًا).

فعندما تنظر الأنا لنفسها وكأنّها العالم بأسره، تصبح واهمة بما تمتلئ به من ظنون بأنّه لا يوجد شيء خارجها؛ فهي كما تزعم الأفضل وعلى كلّ المستويات، تعتقد فيما تسلك ولا تعتقد في سلوك الآخرين؛ ولهذا لن تكون قادرة على القيادة الجامعة، بل تصبح مقدرتها في اتجاه ما يفرّق، مما يجعل للتطرُّف مناخًا مناسبًا لإثارة الزوابع، وهنا يكون الصدام بين من يتمركز على أناته (شخصانيًّا) ومن قرّر مواجهته بالمطلق؛ ولذلك تنعدم معطيات الالتقاء الذي يمكن أن يكون من خلاله الوصول إلى بداية عهد جديد في إذابة التشبّث، وجعل الأمور تسير وفق نطاق يلملم ما يحصل ويدخله في دائرة التوافقات التي يكون من خلالها تقريب وجهات النظر وتغيير الاتجاهات نحو ما يجب؛ فالمركز والتطرّف متقابلان في كلّ شيء إلى أن يجلسا حول طاولة واحدة (نحن معًا) و(نحن سويًّا) وحينها يعرفان أنّهما كانا على وهم أنّهما المتقابلان في الوقت الذي هما فيه ليس كذلك؛ ولهذا الجلوس حول طاولة الحقّ المستديرة تجعل كلّ واحدٍ من الجالسين مركزا مساويا للآخر، وحينها

تنجلي الحقيقة إن كانت النوايا مستهدفة تحقيق آمال مشتركة من أجل صناعة المستقبل الأفضل والأجود والأحسن والأهم والأعظم.

إنَّ تشبّث الإنسان بكلّ ما يتعلق به من أمر حقّ لا يستوجب الحرمان، والأمر هنا: كلّ ما يتعلق بالإنسان من سياسة داخلية وخارجية وحربٍ وسلمٍ وملكية وتعليم وصحة وكلّ ما من شأنه أن يُسهم أو يؤدِّي إلى إشباع حاجاته دون أن يكون على حساب إشباع حاجات آخرين؛ ولهذا من الوجوب التشبّث بممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات، بل من غير اللائق ألّا يتشبث الإنسان بكلّ ما يتعلق بأمره الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وعلى كلّ المستويات الفردية والجماعية والمجتمعية، إنّه الأمر الطبيعي ومن خالفه خالف قوانين الطبيعة التي تأسست على الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة التي جعلت الإنسان هو المركز.

إنَّ تشبّث الأنا برؤاها في مقابل الآخر برؤاه لا يؤدِّي إلى حلّ، بل في بعض الأحيان يؤدِّي إلى التطرُّف مع استخدام أشدّ الوسائل عنفًا ودمويَّةً، وبالتطرّف قد ينتزع الآخر اعترافًا يتمكَّن به من الجلوس على طاولة التفاوض والمراجعة التي تجعل كلّ طرفٍ خيرَ مستمعٍ لآخر جالسًا حول طاولة التفاوض المستديرة على قاعدة: (الحقّ للجميع ودون استثناء)، وتجعله أيضًا خير متحدثٍ عن أمره (سببًا وعلةً)؛ ولذ لو لم يكن الحلّ كامنًا في التطرّف ما تطرّف من تطرّف فعلًا وسلوكًا؛ ولهذا عندما يكون عدم الاعتراف بحقوق الآخرين وواجباتهم ومسؤوليَّاتهم هو السائد، فلا يكون لهم حلٌّ إلّا التطرّف الدموي الذي لا يجب الدعوة إليه بأيّ علة أو سبب، بل الانفتاح على مجموعة من الاختيارات والبدائل التي تهيئ الإنسان إلى الاختيار بإرادة، وحلّ

هذا الأمر بين الأنا والآخر يمكِّن كلا منهما من طي الهوة بمسببات التخلي عندما كانا يتشبّثان بأركان الحلّ المطلق، وبما أنّ الحلّ مؤسّس على الزوجية (الأنا والآخر)؛ فلا يمكن أن تستمد الحياة قوّتها إذا أُلغي الآخر، وهذا الأمر يخالف الأمر الزوجي الذي بُنيت الحياة عليه وغرست فيه نبتة الأمل.

ولأنّ الأنا قوّة والآخر كذلك فإنَّ مقارنة كلا منهما بالآخر تجعلهما في تساوي القوّة، ولو جلس الأنا مع الآخر على قاعدة: (نحن معًا) و (نحن سويًّا) مع فائق الاعتراف والتقدير والاحترام لكان الحلّ بينهما مؤسّسًا على ما يجب، وقاطعوا الفرقة التي لا تكون إلّا بأسباب تمسُّك كل منهما برؤاه الخاصة وتشبّثه بها.

ولذا فانَّ التشبّث بالحلّ هو الحلّ، فالإنسان القوّة يتوحّد مع الآخر دون أن يجعله خصمًا أو يدفعه إلى أفعال التطرّف؛ ممّا يؤدِّي إلى الوهن والضعف كلّما تواجها.

ولهذا يجب أن يكون المركز للجميع إن أردنا أن نَقْبُرَ التطرُّف إلى الأبد، وإلّا ستظهر قاعدة: (إن عدتم عدنا)، وحتى لا يكون التشبّث قاعدة في غير محلّه؛ فعلى الأنا والآخر أن يكونا على قاعدة: (المرونة الاستيعابيَّة) التي بها يُعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه، وبها يكون هامش القول الحقّ، والفعل الحقّ أكثر اتساعا، وبها تجد مشاعر الاعتراف والتقدير حيِّزا لها، وتجد المكانة مكانتها، ويُعتمد المنطق الحُجَّة ويجد كلُّ فسحته في ممارسة الأمر بإرادة حرة.

إنّ رفض الآخر أو رفض آرائه قد يدفعه إلى التطرّف، وكلّما اشتد الرفض اشتدَّ التطرّف، وفي هذه الحالة يصبح الأمر كمن يرمي حُزمًا من الليف

على النّار وهي مشتعلة، فينبغي للحلّ أن يكون على معطيات الوجوب وأهميَّة اتباعه ومعطيات الوجوب ومبرراته أو الإحجام عنه؛ ذلك أنّ الحلّ يؤسّس على حقائق؛ فلا يكون وقتيًّا لفترة محدودة، بل لا بدَّ أن يكون للزمن القادم برمّته؛ فالحلّ الوقتي ليس هو الحلّ، بل هو في حقيقة الأمر يمثّل عثرة جديدة تجتمع حولها أفكار جديدة تؤجّج الخلافات وتمنحها وقتا يساعدها كي تثور مرة أخرى، وهذا الأمر يؤجّج كلّ ما يكون سببا في عدم الالتقاء بين المركز والتطرّف (بين الأنا والآخر).

إنَّ اتساع المسافة بين المركز والتطرّف في البداية يستوجب تنازلات وطنيَّة وأخلاقيَّة كي يحدث التقارب الذي يكون فيه:

. فهم كلّ طرفٍ حقيقة الطرف الآخر.

. محاولة الكشف عن نقاط الاختلاف والاتفاق.

. طيّ الهوة بين الطرفين يبعد شبح الفشل والخوف والتوجس.

. رسم معالم المستقبل الواجب صنعه بعد نهاية كلّ العلل والمسببات الكامنة وراء تأزُّمات كلا الطرفين.

تقديم التنازلات عن تلك الاشتراطات التي نتجت أيام المواجهة الباردة والمواجهة الساخنة بين المركز والتطرّف تكمن فيها الحقيقة وأساليبها وكيفيَّة إظهارها من أجل التوصل إلى حلٍّ مؤسّس على كفتي العدل الذي تزول به المظالم ويُكَفُّ به تقديم الضحايا قربانًا عن غير طاعة.

وأيُّ تنازلات تُقدّم اليوم إنْ لم تكن مبنيّة على الحقائق لا تكون غدًا سببًا من أسباب التقارب، بل إنَّ الذين يتنازلون اليوم بغير حقٍّ سيتخاصمون غدا بأسباب التنازلات، والذين يلجأون إلى الحقيقة معلومة بمعلومة وحُجَّة بحجَّة أولئك هم الذين يشخِّصون الحالة، ويعرفون مكامن العلل التي من خلالها يتوصَّلون إلى درجة التوافق دون إعطاء أي تنازلات.

إنَّ الدخول في تنازلات ايجابيَّة يؤدِّي إلى حلّ مرضٍ، أمّا تقديم التنازلات السلبيَّة فلا يؤدِّي إلى حلٍّ مرضٍ، حتى وإن توهَّم أحد ذلك فلا يكون الحلّ نهائيًّا؛ ممّا يجعل المشكلة تظهرُ وتعود إلى ما كانت عليه؛ فبذور الفتنة المستقبليَّة تكمن في تقديم التنازلات السلبيَّة، وليس لها بدٌّ من حلٍّ إلا بإحقاق الحقِّ وفق معطياته ومبرراته ومكانه وزمانه وخصوصيّاته، وإلّا ستعود الفتنة تشتعل بحطب نار التطرّف.

ولأنّه لا اختلاف بين من يقول: إنّ الحلَّ يتمركز في نقطة محدّدة ومن يرى أنّه لا حلَّ إلا بالتطرّف، فالحلّ أن تُفتح آفاق التقبُّل مبدأ بين الأنا والآخر دون طلب تقديم تنازلات مشروطة.

ولأنَّ التقبُّل حقٌّ فلا ينبغي له أن يصادر، ولأنَّه حقٌّ للطرفين فإن قُدِّم لهما تيسيرًا فهو الذي يطوي المسافات بينهما دون تقديم تنازلات مشروطة، وإذا لم تُفتح آفاق التقبُّل ستظلّ الأنا مستقلة عن الآخر مثلما الآخر مستقل عنها إلى أن يعتمدا مبدأ التقبّل، حينها يصبح التواضع مُمكِّن من الالتقاء والحوار والنقاش ويتم التوصُّل إلى الحلّ الذي لا يكون إلّا من أجلهما، ومن هنا: يجب تعدد المراكز طالما هناك من يُفكِّر في أن يحتكر المركز ويُقصي

الآخرين عنه، ومع ذلك لا ينبغي الإغفال عن أهمية تقدير المركز العام الذي تأسس بإرادة لا بإكراه من أحد ولا على حساب أحد، بل تأسّس وفقًا لقاعدة التداول السلمي على السُّلطة.

إنّ الأنا والآخر يشتركان في النوع الإنساني الذي يكتسب الأفكار التي تحدّد السّلوك متأثرة بالدوافع؛ وهذه الدوافع متنوّعة المصادر ومتعددة الاتجاهات، تفرض على السّلوك وسائل وأدوات في التعبير عن القناعات الفكرية؛ ممّا يستوجب وقفة عند الدوافع التي تحدد السّلوك في اختيار أدوات التعبير.

العقل من الأميَّة إلى الدّرايةُ:

العقلُ دراية هو تلك الحيويّة المستنيرة وعيًا، وهو الذي يعلم بالشيء بعد أن كان لا شيئًا مجهولًا، كما أنَّه يعلم الحكمة التي تخفي من ورائها سرًّا، والغاية التي تستوجب الأخذ به شيئًا ولا شيئًا حتى بلوغ المأمول ونيله، مع مقدرة على حُسن التدبُّر تكشف العلاقة بين الظَّاهر والكامن في الوقت الآن، والتفكّر فيما ينبغي البحث عنه حلًّا للتأزُّمات، بعد تذكّر به يُتَّعظ، ويُحدثُ النُّقلة، ويطوي الهوة بين دوائر الزَّمن:

- الماضي.
- الحاضر.
- المستقبل.

ولذا فالعقل دراية ليس ذلك العقل المنهج برؤية تعليميَّة ولا ثقافيَّة، بل هو ذلك العقل المتجاوز لدائرة الممكن تحدٍّ وخوارق، إنَّه العقل الممكَّن

من دخول دائرة المعجز، والذي لا يكون علمه إلَّا بيد عالم الغيب والشهادة؛ ولذا فالأنبياء وحدهم أصحاب العقول الدَّارية.

ومع أنَّ الدَّراية عمليَّة عقليَّة فإنَّ من تمكَّن منها تمكَّن من طي صفحات الأميَّة إلى الأبد، ومع أنَّ الدّراية لا تُعلّم فإنَّ علومها تُعلَّم؛ فعلى سبيل المثال: دراية النبي محمَّد جعلته على نُقلة من الأميَّة إلى الدراية التَّامة، أي: إنَّ ذلك النبي الأمي بعد أن أعلمه الله بالمعجزات أصبح نبيًّا يعلم ما لم يعلمه غيره، ومن هنا أصبح محمّدًا نبيًّا ومعلّمًا يعلم ويعلِّم غيره ما أُنبأ به إنباءً، وهو المعجز الذي لا يبلغه البشر إلَّا بأمر من العليم الحكيم.

ولذا فالأميّ هو الذي لا يدري ولا يعلم بما لم يُعْلِم به، والنّبي الأميّ هو محمَّد الذي لم يدرِ ولا يعلم بأمر الرِّسالة التي كُلِّفَ بها قبل تنزيلها عليه تنزيلًا؛ ومن ثمَّ فالذي لا يعلم بالشيء لن يكون له من الشيء شيئًا به يدري، أمَّا الذي يَعلَم فإنَّه يُعلِم بما أُعلِم به ويُعلِّمَه لمن هم لا يعرفونه ولا يدرون.

ومع أنَّ اللُّغويين كما جاء في لسان العرب قد عرَّفوا الأميّ أنَّه: "المنْسُوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمُّه، أي: لا يَكتُبُ، فهو لأَنَّه لا يَكتُب أميّ؛ لأن الكِتابة مُكْتسَبَةٌ؛ فكأَنه نُسِب إلى ما يُولد عليه، أي: على ما وَلَدَته أُمُّهُ عليه"[39]، فإنَّنا نرى في المقابل إنَّ الأميٌ ليس كذلك، بل هو من لا دراية له بما لا يُعلم به، ومن هنا فلا علاقة بين الأمّيٌ وعدم معرفة القراءة والكتابة، فهذه العلاقة لا تكون إلَّا بين الجهل والتعلَّم، أو بين التيه والمعرفة، أمَّا الأميّة فليس لها علاقة إلّا بعدم الدِّراية؛ ولذلك فالنَّبيُّ الأميّ هو الذي أُنباء بما لا

39 لسان العرب، ج 12، ص 22.

يدري حتى أصبح نبيًّا يدري، وهذه معجزة وقد وُهبت لمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وإذا راء البعض أنَّه لا يليق أن نصف النبي بالأميَّ (عدم الدّراية) فنقول: إنَّ النبيّ الأمي تعني: (أنَّ الذي كان لم يدرِ أصبح يدري) أي: (محمَّد الذي كان أميًّا أصبح نبيًّا) فمحمَّد كان أميًّا أربعين سنة تقريبًا قبل الرِّسالة، وأصبح من بعدها نبيًّا ثلاثة وعشرين سنة تقريبًا؛ ولهذا فثلثي عمر محمَّد كان أميًّا والثُّلث من بعدها أصبح فيه نبيًّا؛ ومن هنا فلا صفة تجمع صفتي حياة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام إلَّا صفة (النبيُّ الأميُّ) وهنا تكمن معطيات المعجزة، كيف يكون الأمي نبيًّا؟!!

ومن ثمَّ فالأميّ هو الصّافي الذي لا تشوبه شائبة من أيّ دراية مُسوَّقة لخدمة غرض من الأغراض الدينيّة أو الدنيويّة، وهو من لا تلتصق به التهم فيما لا يعلم ويدري وإن نُعت بها.

والأميّة حالة غير دائمة وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة النسبيَّة ودائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فمن يكن أميًّا يصبح في دائرة الممكنِ عالما فلا استغراب في هذا الأمر؛ وإن كان بالعلم تستنير العقول وتطمئن الأنفس والقلوب، فما بالك باستنارة النبأ اليقين الذي نسخ أميَّة محمَّد بعد أن أمره الله بقوله (اقرأ) فقرأ باسم الله ما لم يكن يقرأ ويعلم؟!

وحتى لا تلتبس المفاهيم بعقولنا وتحيد بها عن صوائبها أُوضحُ المفاهيم الآتية من خلال تضاد مفاهيمها:

. العلم في مواجهة الجهل (عَلمَ جهلَ).

. المعرفة في مواجهة التّيه (عَرَفَ تَاهَ)؛ ذلك لأنَّ التائه هو الذي ليس له من الدليل شيءٍ ليستدل به على الشيءِ معرفة.

. الشَّك في مواجهة اليقين (شكَّ تيقَّنَ).

. الغفلة في مواجهة الفطنة (غَفلَ فطنَ).

. الهداية في مواجهة الضلال (هَدى ضَلَّ).

. أمّأ الأميّة فلا تكون إلَّا في مواجهة الدراية، ولا اشتقاق من الأميّة إلّا مفهوم عدم الدّراية مما يجعل التضاد بين: (أمّيّ داري)، قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[40]، وقال: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}[41].

جاءت هاتان الآيتان مبيّنتان لمفهوم الأميّة بأنَّها عدم الدِّراية بالمطلق، وهذا يخالف الجهل؛ إذ لا جهل بالمطلق، ولا علم بالمطلق؛ ومن هنا فالجاهل وإن لم يتعلّم فإنَّه يعرف تمييزًا وتفكيرًا وتدبُّرًا.

وهذا يدلُّ على أنَّ مفهوم الأميّة أكثر بعدًا من مفهوم عدم المعرفة، فالإنسان الذي يعرف ليس بالضرورة أنَّه يدري، ومن هنا فمع أنَّ الأميين يعرفون ما يعرفونه من شؤونٍ وأمور فإنَّهم لا يدرون بقوانينها ولا يدرون بالأسرار التي تختفي من ورائها، ولا علاقة لهم بالمعجز الذي به تستنير العقول وتطمئن القلوب، وهكذا العلم لا يكون إلَّا في مواجهة الجهل مما يجعل المتعلّمين يعلمون ما يعلمونه ولكنَّهم مهما علموا فهم لا يبلغون علم الدّراية الذي وحده يُمكِّن من معرفة الحكمة وما تخفي مِن ورائها مِن سرٍّ.

---

40 الأحزاب: 63.

41 عبس: 3.

ولذا فالنّبي محمَّد قبل الرّسالة لا دراية له بها (أمي)، ومن بعدها أصبح يدري (نبي)، ومن ثمَّ فمفهوم الدّراية هنا يدلُّ على: (الإلمام بعلم اليقين، الذي يجعل من المعرفة عينُ يقين، ومن الخبرة حقُّ يقين)، وفي المقابل، الأميّة لا تكون إلَّا في دائرة ما يخالف هذا، فالذي لا يتكلّم اللغة الفرنسيّة بالنسبة إلى المتحدثين بها هو جاهل، والذي لا يعرف لغة الحاسوب واستخداماته فهو بالنسبّة إلى هذا الأمر جاهل، حتى وإن كان من المتحصّلين على الشهادات العالية والدّقيقة، أو كان عالما في علوم الفقه والدّين، وهكذا في المقابل بالنّسبة إلى من يجيد اللغة الفرنسيّة، أو أي لغة وهو لا يعلم أو لا يعرف شيئًا عن علوم الفقه والدّين، فهو لا يخرج عن دائرة الجهل النسبيّ؛ ولذلك كل العلماء والمتعلّمين في دائرة عدم المعرفة النسبيَّة، ومع ذلك فالجهل لم يكن أعظم حالًا من الأميّة، بل الأميّة أعظم أثرًا؛ كونها تدلّ على عدم الدّراية بالمطلق، وليس على عدم المعرفة؛ ذلك لأنَّ المعرفة عقليّة؛ ولذا فالكل في دائرة النسبيَّة يعرف ما يعرفه، أمَّا الأميّة بالشيء فلا معرفة ولا علم ولا دراية به، وبخاصّة عندما يكون أمر الشيء أمرٍ يتعلَّق بالسَّماء، ومن هنا فأمر الدين (الوحي الموحى) لا يأتي إلَّا من خارج العقل (من السّماء إلى الأرض)؛ ولأنَّه يأتي من خارج العقل إليه من السَّماء فلا أحد يعلم أو يعرف أو يدري شيئًا من ذلك؛ ولهذا فالكل أميٌّ بأمر السّماء، وما محمَّد إلَّا واحدٌ من الأميّين بأمرها إلى أن أعلمه الله، وأنبأه بالأمر (كن)، فكان محمَّدٌ قارئًا بالأمر (اقرأ) فقرأ، وهذه من عظيم معجزات محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

والرَّسول الكريم بالنّسبة إلى علم القرآن قبل نزوله كان أميًّا قراءة وكتابة ومعرفة ودراية؛ مصداقًا لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[42].

إنَّه الأمر الأوَّل الصَّادر للنبي الأميّ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)؛ ولأنَّ محمَّدًا –عليه الصَّلاة والسَّلام– أميٌّ، أي لا دراية له بأمر القراءة فقال: ما أنا بقارئ فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فقرأ ما قيل له (باسم الله) فأصبح بما قرأ يدري، أي: غير أميّ.

قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أميّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[43] فـ(منهم أميّون) للتبعيض وهي عائدة على بعض ممن لا يدرون بما جاء في الكتاب المبين، ويقصد اليهود الذين هم أميّون بالنسبة إلى من أنبأ أو عُلِّمَ أو تعلَّم الكتاب المبين أو آمن به. وهناك من يرى أنَّ الأميّين هم العرب وغير العرب ممن لا يعلمون بالقرآن وأمر الرِّسالة الخاتمة للنّاس كافَّة، وهناك من يقول: "(ومنهم أميّون)، أناس من يهود"[44].

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسول النَّبِيَّ الْأميّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ

42 العلق: 1 . 5.

43 البقرة: 78.

44 تفسير الطبري، ج 2، ص 257.

الْمُفْلِحُونَ}[45] العرب الأميّون والذين آمنوا معهم هم المعنيون بقوله: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسول النَّبِيَّ الْأميّ)؛ ولأنّه الرَّسول فهو صاحب الرِّسالة الخاتمة، ولأنّه النبي فهو الذي أنبأه الله: {النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}[46]، ولأنّه الأميّ فهو الذي لم يكن له سابق علم ولا دراية بما أُعلم به وأنبأ وكُلِّف؛ ولذا فتثبيت قوله تعالى (الرَّسول النَّبِيَّ الْأميّ) جاء تثبيت صفات ثلاثة لشخصٍ واحدٍ (محمَّد) عليه الصَّلاة والسَّلام فهو الذي كان أميًّا وأصبح نبيًّا رسولًا.

أمَّا قوله: (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ) فهم أصحاب التَّوراة والإنجيل الذين يعلمون أنَّ رسولًا خاتمًا ودينًا للكافَّة سيكون على لسان الأميّ أحمدُ صلوات الله وسلامه عليه.

ولأن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لم يعد أميًّا بعد الرِّسالة الخاتمة، فأمره حقّ يستوجب الاتباع؛ ولهذا قال تعالى: (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)؛ ولأنَّ هذا الأمر من الله أعطاه لمحمَّد حقًّا في سبيل إحقاق الحقّ، فاتِّباعه واجبٌ، ومن يعصي أمر محمَّد صلوات الله وسلامه عليه بالمعروف يعصي أمر الذي أصدر له الأمر وهو الله جلَّ جلاله؛ ولذا لا يعتقد في أنَّ الله تعالى يعطي أمره لمن يجهل أمره (أميّ)؛ ولهذا لا يعد محمَّد أميّا وبين يديه نور الله أمرٌ مكلّفٌ به.

ولأنَّ محمَّدًا لم يعد أميًّا بأسباب امتلاكه الدِّراية الكاملة بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حقّ النهي عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث؛ مصداقًا لقوله تعالى: (وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)؛ ولذا عندما كان محمَّدٌ أميًّا لم يُعط له هذا الحقّ، أو هذا

45 الأعراف: 157.

46 النبأ: 2 3.

التفويض، أو هذه الصلاحيَّات كما تسمى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلا هل يُقبل أن يكون أمر التصرّف بأمر الطاعة بيد من لا يعلم الأمر ومعجزاته؟ وهل يقبل التحليل والتحريم والنهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُحَلِّل أو يُحرِّمُ؟

هنا أقول: بالطّبع، لا.

ولهذا فمحمَّد صلّى الله عليه وسلّم بعد أن قرأ بأمرٍ من الله تعالى فهو القارئ وليس الأميّ؛ ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرِّسالة، وعليه: الكلام أو الحديث عن محمَّد قبل الرِّسالة كلام أو حديث عن أميّ، والكلام أو الحديث عن محمَّد بعد الرِّسالة صلى الله عليه وسلم حديث أو كلام عن رسول يعلم؛ ولذلك على المسلمين أن يفرِّقوا بين الحديثين والشخصيّتين (شخصيّة محمَّد الأميّ، وشخصيّة محمَّد الرَّسول النبي الذي أصبح يعلم) وإلّا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم بالأميّ، ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء الأجلاء؟!!

وكيف يُقبل أن يكون محمَّدٌ هو صاحب الرِّسالة الخاتمة للنّاس كافَّة ويقبل أن يوصف بالأميّ؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأوَّل: أمرُ محمَّد الأميّ.

الأمر الثَّاني: أمر الذين تعلموا مما علّمهم به حتى أصبحوا علماء وحكماء؟

وعليه: هل يقبل أن يكون للرّسالة مرجعيّة ورسولها أميّ؟

ولأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام رسول للنّاس كافَّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[47] أي: إنَّ محمَّدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن رسولًا خاصًّا بالعرب، بل هو الرَّسُول الخاتم وللكافَّة: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}[48].

إذن: كيف يُقبل أن يكون رسول الكافَّة أميًّا والنَّاس على يديه علماء وحكماء ويعلمون؟!

أقول: رسول الكافَّة ليس بأميّ، بل هو بما أُعلِمَ عَلَّم وبشَّر وأنذر وحرَّض وحلل وحرّم وأمر ونهى، وهو قبل الرِّسالة محمَّد الأميّ، وبعدها محمَّد رسول ونبي؛ ولذا فالفرق كبير بين محمَّد الأميّ الذي لا صلاة ولا تسليم عليه في زمنها، ومحمَّد الرَّسول النبي الذي يصلّي الله وملائكته عليه، ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

وعليه: فالقول بـ(الصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمَّدٍ) هو إقرار بأنَّه لم يعد ذلك الأميّ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[49] قال (يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) ولم يقل:

---

47 الأعراف: 158.

48 سبأ: 28.

49 الأحزاب: 56.

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ صلّوا عَلَى النَّبِيِّ) أي: إنَّ الله وملائكته صلاتهم على النبي لا تنقطع أبدًا، ومن ثمَّ فالأمر هنا إذا أردنا المقارنة بقصد التبيان يختلف عن أمر سجود الملائكة لآدم الذي حدث أمرًا وتسليمًا بما ميّزه الله به من نبأ لا يعلمه الملائكة، فكان السجود طاعة لأمر الله ساعة الخطاب والإنباء، وهكذا سيكون هو الأمر لو جاء قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ صلّوا عَلَى النَّبِيِّ)، أي: لكانت صلاةُ ماضٍ (صلاة وقد انتهت)، ولكنَّها جاءت صلاة دائمة باقية، وهذه من أعظم معجزات النبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

ولأنَّنا من الذين أسلموا وجههم لله ربّ العالمين وآمنوا به واحدًا أحدًا لا شريك له، وبمحمَّد رسولًا خاتمًا فإنّنا نصلّي ونسلّم عليه مباركة وإقرارًا بأنَّ ما جاء به هو الحقّ من الحقّ المطلق جلّ جلاله؛ ولذا فالصَّلاة والسَّلام على محمَّد هي اعتراف واعٍ وعن دراية بأنّه الرَّسول الذي اصطفاه الله للنّاس كافَّة بالرِّسالة الخاتمة؛ ولأنَّه يعلم بأمر الرِّسالة أكثر من الذين آمنوا بها على يديه، أو آمنوا بها من بعده؛ لذا فالصَّلاة والسَّلام إعلان تسليم بالحقِّ والرَّسول الحقّ المصطفي من الحقّ المطلق.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[50]. الأميّون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرءون ولا يكتبون، بل تدلُّ على أنَّ الأميّة هي: (في دائرة النسبيَّة)، وإلَّا هل هناك من يصدّق أنَّ العرب جميعهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون وكأنّهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلّا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسولهم الكريم صلوات الله

50 الجمعة: 2.

وسلامه عليه؛ ولهذا مع أنَّهم حقًّا أميّون إلّا أنَّ البعض منهم يقرؤون ويكتبون؛ ولذا فهم بالنسبة إلى الدين الجديد (القرآن) فهم جميعهم أميّون، وأنَّ أوَّل من أُعلِمَ دراية هو رسولهم النبي محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أميًّا قبل نزول القرآن، ولأنَّه أوَّل من أُعلم كان مكلّفًا بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم وبتعليمهم الكتاب والحكمة بوصفهم كانوا أميّين بما أُنزل.

وعليه: فالرَّسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– كما جاء في الآيات السَّابقة يتلو القرآن، ولأنَّه كذلك فكيف يحقّ لنا أن نصفه أميًّا؟ أي: هل يحقّ لنا أن نصف من يتلو القرآن بأنَّه أميّ؟ وأيضًا كيف نصف من يزكّي ويُعلِّم المسلمين والمؤمنين الكتاب والحكمة بأنَّه أميّ؟ أي: كيف نقبل بأن يوصف المعلم بالأميّ، ويوصف المتعلّم على يديه بالعالم؟

وفي هذه الآية الكريمة تتضح بعض المهام الرَّئيسة للرَّسُول الكريم وهي:

1 ـ أن يتلو القرآن على الأميّين؛ ليعلموا بالحقِّ ويتبعوه، والقرآن الذي يتلوه عليهم لم يَتعلَّمه بالقراءة والكتابة كما نحن نتعلَّم، بل تعلَّمه وحيًا موحى، وبهذا فقد عَلِمَه، أي: أُعْلِمَ به إعلامًا والإعلام بالشيء كالخبر به، والفرق بين هذا وذاك هو أن الإعلام بالشيء يكون أمره (هو كما هو عليه)، والإخبار به للعلم بالشيء أو ما يتعلق به دون إلزام الأخذ به، والعلم بالشيء الإلمام به دون غفلة عن شيء منه؛ ولهذا قد علَّمه شديد القوى ما لم يكن يعلم.

وعليه: فالإعلام بالقرآن لا يتمّ إلَّا مع من يجهله، ومن يجهله (أميّ) وتعليم القرآن يتم مع راغب أو أميّ؛ ولهذا كان محمَّدٌ قبل نزول القرآن أميًّا به، أي: لا يعلمه، ولا يعلم عنه شيئًا ولا يدري بخلاف سيدنا عيسى والذين

آمنوا برسالته؛ فهم يعلمون أنَّ رسولًا سيصطفيه الله برسالته اسم صفته أحمدُ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[51].

ولأنَّ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام كان أميًّا بالرِّسالات السّابقة للرّسالة الخاتمة فهو لم يعلم بالرِّسالة الآتية التي يعلم بها موسى وأتباعه قبل إعلامه وعلمه بالقرآن؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}[52]. إنّه القول الحقّ فلو كان يعلم بالأمر مسبقًا ما كان أميًّا بأمر الرِّسالة، وهو أيضًا لم يكن يعرف الكتابة التي تخط بأيدي الكتّاب؛ ولذا فلو كان قارئًا لكان كاتبًا لما يقرأ ولكان في دائرة الموصوفين بالتعلّم بدلًا من دائرة الموصوفين بالأميّة.

2 . أنْ يُزَكّيهم، وتزكيتهم باتباع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتجنب ما نهى الله عنه واتباع ما أمر باتباعه والأخذ به، وبتحليل ما أحله الله لهم، وقول الحقّ وفعل الحقّ والإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها أو سفك الدّماء بغير حقٍّ، فمن يتبع ذلك يعد مزَكّيًا؛ حيث لا ذنب عليه في شيء؛ ولذا فالمزَكّون هم المطهّرون.

---

51 الصف: 6.

52 العنكبوت: 48.

3 ـ أنْ يُعلِّمهم الكتاب والحكمة، وهذه خطوة مترتّبة على الخطوة الأولى (العلم بالقرآن) والعلم بالقرآن يعني: عدم الجهل به؛ ذلك أنَّ العالم به هو من لا يجهله.

فكلمة: (يُعلِّمهم) تدلُّ على أنَّه متعلّم بعلم الكتاب وعلوم الحكمة، أي: إنَّه بالعلم كان سابقًا على الأميّين في تعلّمه، وإلَّا ماذا سيعلّمهم لو لم يكن عالما متعلّمًا؟! وبما أنَّه المتعلّم بما علّمه الله به؛ إذن لا يحق أن يوصف بالأميّ؛ مصداقًا لقوله تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أميّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[53]. (ومنهم) جاءت للتبعيض؛ وذلك لإظهار الجزء من الكل، وهذا يدلُّ على أنَّ البعض الآخر غير أميّ، فالذين يعلمون بالكتب والرُّسُل ورسالاتهم غير أميّين، والذين لا يعلمون شيئًا من هذا فهم الأميّون؛ ولذلك فبعض من اليهود، وبعض من النصارى، وبعض من العرب أميّون لا يعلمون الكتاب.

ولذلك "الأمَّة الَّتِي بَعَثَهُ اللَّهُ إلَيْهَا فِيهِمْ مَنْ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ كَثِيرًا كَمَا كَانَ فِي أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ مَنْ يَحْسُبُ وَقَدْ بُعِثَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفَرَائِضِ الَّتِي فِيهَا مِنْ الْحِسَابِ مَا فِيهَا، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَامِلُهُ عَلَى الصَّدَقَةِ ابْنُ اللتبية حَاسَبَهُ. وَكَانَ لَهُ كُتَّابٌ عِدَّةٌ – كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَزَيْدٍ وَمُعَاوِيَةَ – يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ، وَيَكْتُبُونَ الْعُهُودَ، وَيَكْتُبُونَ

53 البقرة: 98.

كُتُبَهُ إِلَى النَّاس إِلَى مَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَرُؤُوسِ الطَّوَائِفِ، وَإِلَى عُمَّالِهِ وَوُلَاتِهِ وَسُعَاتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ"[54].

وعليه كان الرَّسول محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام أميًّا قبل نزول الرِّسالة عليه، أي: إنَّه أميّ قبل الرِّسالة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}[55] أمَّا بعد نزول الرِّسالة عليه فليس بأميّ؛ وذلك لأنَّه أوَّل من قرأ القرآن، وأوَّل من أعلم به النَّاس، وأوَّل من علَّمه لهم، وأوّل من صلى بهم قارئًا، قال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[56].

ولأنَّ البعض أميّ قال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[57]، ولأنَّه قرآن كريم نزل لِيُحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويدمغه حتى يزهق، قال: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) أي: بعض من أهل الكتاب وليس كلهم، فلا تعميم؛ حيث البعض يؤتمن جانبه والبعض لا يؤتمن جانبه، ومن لا يؤتمن جانبه إذا داينته بدين لا يرده إليك؛ فهؤلاء هم مثل الذين يأكلون الرِّبا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي

54 مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 6، ص 71.

55 العنكبوت: 48.

56 البقرة: 151.

57 آل عمران: 75.

يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}[58]، ومثل الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما؛ مصداقًا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}[59].

وعليه فإنَّ الكلمة التي بها كُسِرَ وهمُ الأميّة (اقرأ) لا يمكن أن يكون صاحبها من بعدها أميًّا.

ومن ثَّم وجب علينا أنْ نميّز بين مفهومي: علم التوحيد، وعلم المعارف المتنوّعة؛ فعلم التوحيد علم يقين، وتقابله الأميّة فيكسر وهمها: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[60]، أمَّا علم المعارف المتنوّعة في دائرة النسبيَّة، فيقابله الجهل فيكسر وهمه، مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[61].

ولتوضيح الفارق في المفاهيم أقول:

الجهل: لا يعني عدم المعرفة، بل يعني أن جزءًا كبيرًا من المعرفة غائبٌ؛ فالذي يعلم بمحمَّدٍ رسولًا، ولا يعلم عن رسالته إلَّا قولًا مسموعًا يعد جاهلًا، وليس بأميٍّ؛ ذلك لأنَّ الجاهل هو من تحوطه العلوم والمعارف والأنباء ولا يسعى إلى معرفتها.

أمَّا الأميَّة فإنَّها لا وجود لشيءٍ يحوطنا ونحن لم ننتبه له، أو نتعرَّف عليه، أو ننهل منه ونتعلَّم، أي: ما نحن منه على أميَّة لم يولد بعد، ولم يكن

58 البقرة: 275.
59 النساء: 10.
60 النمل: 75.
61 الاسراء: 85.

في دوائر تفكيرنا وتوقّعاتنا، وبالتَّالي فنحن أميّون بكل ما لم يُخلق، ونحن نجهل أمر ما خُلق ما دمنا لم نتعرَّف عليه بعد، وبعضنا جاهلٌ بما يعلمه البعض وسيظل الجاهلُ جاهلًا حتى يعلم ما عَلِمهُ غيره.

ولأنَّ الأميَّة تعني: لا دراية بالأمر، فإنَّها تعني غيابًا كاملًا بالموضوع الذي نحن من دونه أميّون، أي: لا وجود لجزء ولا متجزئ لمعلومة وإنْ عظمت في صغرها.

ومن ثمَّ فالجهل لا يعني غياب المعلومة، بل يعني عدم البحث عنها والسّعي إليها، أمَّا الأميَّة فلا وجود للمعلومة على الأرض حتى نسعى إليها بحثًا.

ولذا نجد من بين الذين آمنوا من لا زال في دائرة الجاهليَّة؛ ذلك كونهم لم يتعلّموا القرآن ويتدبَّرونه: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[62] جاء في هذا الآية الكريمة استغراب بقوله: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ) أي: لو تدبروه لعلموا بالحقِّ دراية، أي: فهم بالنسبة إلى الذين يتدبّرونه غير متدبّرين (لا دراية)؛ وقوله: (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) القلوب التي عليها أقفالها هي القلوب التي لم تتدبَّر القرآن؛ ولأنَّها كذلك فهي لم تُفتح بما يجب أن تتعلّمه وتتدبرّه، فبالتدبّر تدخل الحكمة إليها؛ ولهذا القرآن الكريم لا يقتصر أمره على القراءة والكتابة، بل يمتد ليشمل التدبُّر؛ ولذلك فالأميّ هو الذي لا يدري الأمر الذي سيُسأل عنه.

---

62 محمَّد: 24.

العقلُ دراية اقرأ:

العقلُ دراية اقرأ هو العقل المأمور بعلم الدِّراية، وهو ما جرى أمرًا وطرأ مع النبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام ساعة نُقلتِهِ من حالة الأميَّة إلى حالة النبوءة درايةً فـ(اقْرَأْ): التي في لحظة نُطقها نسخت في حينها الأميّة وعَتَمتها من عقل النّبي محمَّد، فانجلت الظُّلمة بنورِ النبوَّة، وأصبح العقل الذي كان لا يدرك إلَّا المشاهد والمحسوس عن قُربٍ، يدرك عن وعيٍ تلك العلاقة المعجزة بين السَّماوات والأرض.

ومع أنَّ كلمة: (اقرأ) كلمة آمرة لا تُقال إلَّا لمن يعلم، ليقرأ ما يعلمه أو يعرفه، فإنَّها بالنِّسبة إلى سيِّدنا محمَّد قِيلت له من العليم الذي يعلم أنَّه ليس بِقارئ، ومع ذلك قالها له ليقرأ عن دراية؛ إذ أرسل الله إليه رسوله جبريل ليبلغه بالأمر: (اقرأ)؛ فقال: اقْرَأْ، قال: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، اقْرَأْ، مَا أَنَا بِقَارِئٍ، اقْرَأْ، مَا أَنَا بِقَارِئٍ[63]، فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[64]. فقرأ باسم ربِّه (بسم الله)، ولأنَّ الله أمره أن يقرأ باسمه فكيف لا يقرأ!!

ومن ثمَّ ألا يكفي النبي محمَّد معجزةً أنَّ الله قد أمره أن يقرأ المعجزات باسمه تعالى، وهو يعلم أنَّه لم يكن بقارئ، فلو كان محمَّد قارئًا وأُمر أن يقرأ المعجزات فلا إعجاز، ولكن الإعجاز أن يقرأ المعجزات وهو لم يكن بقارئ،

---

63 حافظ ابن أحمد ابن علي الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، الدمام: 1990م، دار ابن القيم، ص 1053.

64 العلق 1 – 5.

ولأنَّ أمر (اقرأ) أمر (كُن) فكان محمَّد الذي لا يعرف القراءة والكتابة قارئًا، وأصبح محمَّد الذي لا يدري داريًا.

ولذا فإنَّ القراءة كانت بالفعل (كُن) الذي جعل من الفعل (اقرأ) على لسان محمَّد فعلًا مفعولًا، إنَّها القراءة باسم الله، وليست القراءة باسم محمَّد؛ ولأنَّها باسم الله؛ فلا مُعجز أمام محمَّد أن يتكلّم باسم الله كلّما نزلت عليه آية أو سورة من القرآن وفقًا لمشيئته تعالى.

إنَّها بحقٍّ معجزة؛ إذ انتهت معجزات الأنبياء والرُّسل جميعها، وبقيت معجزة النبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام–باقية، فمن شاء أن يقرأ كلام الله فلا يجده إلَّا بقراءة محمَّد (بسم الله) في كتاب الله.

(واقرأ) لم تكن أمرَ أرضٍ، بل كانت أمرًا من السَّماء، فلو كانت أمرَ أرضٍ ما قرأ محمَّد؛ لأنَّه أميّ، ولأنَّها أمرٌ من السَّماء فقرأ محمَّد بسم الله ما جاء من السّماء، وهذه عظمة المعجزة.

وعليه: فإنَّ معجزة النبي محمَّد (اقرأ) جاءت لتخاطب العقل، وتكسر وهم أميّته، التي فتحت لها مدارس بلا مدرسين، والمنتسبون إليها يُعلّمون بلا علم، وتقدَّست فيها الآلهة بلا مُقدَّس. فكانت (اقرأ) نبراس هداية من الله الذي تتعدَّد صفاته وهو الواحد الذي لا يتعدَّد.

اقرأ، هي معجزةُ محمَّد العقليَّة التي تخاطب العقل، وتُكسر الوهم، وتطمئن النّفس، وتُحدثُ النُّقلة من الأميّة إلى الدراية، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الشرك إلى الواحديَّة، ومن الكفر إلى الإيمان.

ولأنَّ (اقرأ) جاءت لرَسُول الكافَّة أمرًا مفعولًا (كن قارئًا طائعًا)؛ فبقيت للكافَّة فعلًا مأمورًا: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ}[65]؛ ولأنَّ اللهَ يعلمُ أنَّ الرَّسول محمَّدًا يعلمُ قال: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)؛ ذلك لأنَّ الله –تعالى– لا يمكن أن يُعطي أمره لمن يجهل أمره؛ ولهذا فعندما قرأ محمَّد باسم الله مفوَّضٌ من ربّهِ تعالى باركه ربّه والملائكة بالصَّلاة عليه، ثمَّ أمر الله المؤمنين بمباركة النبي محمَّد والتسليم عليه، بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[66]، وهذه الآية الكريمة تدلُّ على الاعتراف بالمعجزة (رسالة الكافَّة)، وبالأمر المعجز (اقرأ)، والمباركة والتسليم لصاحب المعجزة (محمَّد) الذي قرأ ساعة الأمر بالقراءة وهو لم يكن من قبلها بقارئ.

ومع أنَّ كلمة اقرأ جاءت أمرًا مُلزمًا من الله إلى نبيّه محمَّد فإنَّ الإلزام بها لم يأتِ كرهًا، بل جاء الإلزام طلبًا لإظهار الإرادة والفاعليّة تهيأً وتأهُّبًا، ومن هنا قرأ محمَّد بسم الله ما لم يكن بقارئٍ له؛ ولهذا فكلمة (اقرأ) تعدُّ أوَّل كلمة تتنزَّل على محمَّد، وبها يُؤمر طلبًا بعد أن تهيأ لها وتأهَّب واستعدَّ لعلم الدراية.

ومع أنَّ مُعظم المفسّرين يرى أنَّ كلمة (اقرأ) هي مفتاح المعرفة فإنَّنا نرى أنَّ مفتاح المعرفة هو التعلّم لمن أراد أن يتعلَّم ويتعرَّف: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[67]؛ ولذا فقوله تعالى: (اقرأ) هي مفتاح الدِّراية التي

---

65 الحشر: 7.

66 الأحزاب: 56.

67 العلق 4، 5.

هي اعمق من علم المعرفة بالقلم؛ فالدِّراية تُمكِّن من معرفة علم الله في خلقه، وهي التي بها نُسخت أميَّة محمَّد لحظة قراءته بسم الله طاعة لأمر الله، والفرق كبير بين أن تقرأ وتتعلّم على ايدي معلّمين وتتعرّف على ما تتمكّن منه تعلّمًا وبين أن تُمكّن من معرفة العلم المعجز الذي ينسخ الأميَّة ويلغي وجودها كما نسخها والغاها من ذهن محمَّد وملكات عقله حتى اطمأنت نفسه بعلم الدّراية الذي هو من عند الله تعالى: {كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}[68].

ومن هنا فعلم الدِّراية لا يعلمه درايةً إلَّا الله أو من يُظهَر عليه أو على شيء منه؛ فينكشف الحجاب أمامه ليرى ما لم يره غيره: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[69].

إذن: علم الدّراية هو العلم المتجاوز للمعرفة التي لا تكون إلَّا في دائرة الممكن، سواء أكان الممكنُ متوقَّعًا أم غير متوقّعٍ؛ وبهذا فإنَّ علم الدراية متجاوزًا لهذه المعارف، إنَّه العلم الذي يمتد إلى الدراية بالمعجز الذي لا يبلغ إلَّا وحيًا يُوحى، والذي مهما بلغ المخلوق من دراية فلن يبلغها دراية كاملة؛ مما يجعل الرَّاسيات بالدّراية علم غيب لا يعلمه إلَّا الله: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

[68] الشورى 52، 53.

[69] لقمان 31.

مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[70]، وقال تعالى: {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[71].

ومع أنَّ الله أدرى عباده عن طريق رُسُله بما أدراهم به من معجزات فإنَّه أدراهم بأنَّهم لن يدروا كلّ شيء حتى وإن عرفوا من المعرفة ما عرفوا؛ ومع أنَّ الله قد أعلم خَلقه عن الجنّة والنّار وعلم السّاعة التي لا يعلمها إلَّا هو جلَّ جلاله فإنَّه لم يدريهم بحقيقتها كما هي؛ ولذا فمع أنَّنا نعرف عظمة الجنّة والنَّار فإنَّ معرفتنا لا تزيد عن كونها معرفة تقديرية؛ وذلك لعدم بلوغنا علم الدّراية، ومن ثمَّ فلا إمكانيّة لمعرفة المعجزات إلَّا بعلم الدراية الذي لم يبلغه العقل البشري إعجازًا واستحالةً.

إذن: علم الدِّراية غير علم المعرفة، علم المعرفة يتم رواية متناقلًا عبر التَّاريخ، وتعليمًا منهجيًّا كما تتم العملية التعليميَّة المدرسيّة، وبه تتغيّر أحوال المتعلمين من الجهل إلى التعلّم، وهكذا بالبحث العلمي يتعلّم المتعلمون معرفةً بها تتغير صفاتهم من (الجهل إلى التعلَّم)، أمَّا علم الدراية: فعلم تذكّر وتدبُّر وتفكّر واتعاظ حتى بلوغ التسليم حُجّة وبرهانًا وحقُّ يقين، ومن ثمَّ فلا شيء يخفى إلَّا المستحيل.

وعليه: فالمدري يَلمُّ بما يَعلمهُ دراية ولا شيء منه يُفقد مع كشفه في دائرة الممكن لتلك الخفايا (الظاهرة والباطنة)، أمَّا المتعلّم فلا يلمّ إلَّا بشيء مما تعلَّم وإن عظمت معارفه؛ ولذا فمهما تعلَّم المتعلِّم فهو في حاجة لأن

---

[70] لقمان 34.

[71] الزخرف 85.

يتعلَّم، وهذا يعني: أنَّ جزءًا كبيرًا من الجهل ما زال يصاحب ذهنه وعقله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[72].

وعليه: فهناك علاقة ترابط بين مفهومي: كلمة (اقرأ)، وكلمة (دراية)؛ فمفهوم كلمة (اقرأ) المأمور بها قراءة تحمل في مضمونها الإلمام، وبالتمام الدِّراية تحمل في مفهومها التفحُّص الذي لا يكون إلَّا نتاج قراءة المام؛ ولهذا فمفهوم اقرأ ليس قراءة تهجّي أحرف، أو كلمات وجمل ونصوص، بل قراءة التفحّص والتدبُّر درايةً وإلمامًا.

ومن هنا جاء مفهوم اقرأ أمرًا يشير إلى تمكُّن المأمور (محمَّد) بقراءة كل المشهد الاعجازي الذي لم يكن من بعده محمَّدٍ أميٌّ.

ولأنَّ محمَّدٍ مأمورٌ أن يقرأ باسم ربَّه تعالى فقرأ ما أُمر بقراءته من قرآن، ومن هنا، وكما بيَّن اللغويون في قواميس اللغة جاءت كلمة القرآن من كلمة: (اقرأ)، وكلمة (**اقرأ**) تعني مما تعنيه:

. اقرأ بمعنى تكلَّم: فقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[73]، أي: تكلّم يا محمَّد باسم ربِّك، وبه أنطق وأفصح: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}[74]، ومن ثمَّ فمن يأذن الله له أن يتكلّم باسمه ألا يكون هذا الأذن معجزة لمن أُذن له أن يتكلَّم باسمه تعالى؟

---

[72] الإسراء 85.

[73] العلق 1.

[74] الحجر 94.

إنَّها معجزة محمَّد الذي خصَّه الله بها، وبها تميَّز، وبها عُظِّمت رسالته وتعظَّم دوره وشأنه.

ولذا فكلمة (تكلَّم) تعني مما تعنيه: انطق وأفصح مجاهرة بما أُمرت به رسالةٌ للكافةِ: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[75]، أي: ارفع صوتك واجهر به ولا تتردد؛ ذلك لأنَّه وحده صوت الحقّ المطلق، ومن ثمَّ فالوحي الذي جاءك سرًّا من عند الله حان الوقت للمجاهرة به بإذن الله (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ)، وبصدعك به سَيشُقُ صفوف الكّفرة وصفوف الأمّيين الذين لا يدرون بما أُنبأت به وأُرسلت إليه.

. اقرأ بمعنى تفحّص: أي: تبيّن يا محمَّد ودقّق ثمَّ تمعَّن في المعجزات التي ادريتك بها وجعلتها بين يديك؛ لتبشِّر بها وتدعو، وتفحّص ولا تتردّد فكلّ المعجزات التي بين يديك يا محمَّد تستوجب أن تقرأها حتى تتمكّن من التمييز الذي يُمكّنك من معرفة المستحيل مستحيلًا وتقف دونه، ومعرفة المعجز معجزًا وبه تصدع، ومعرف الممكن ممكنًا وعليه تقدر؛ قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}[76]، فاقرأ كتابك: تفحّص كتابك، وهو ما كنت عليه أيُّها الإنسان، وما فعلته من كبيرة وصغيرة؛ إذ كلّ شيء أصبح مكشوفًا، ولا شيئًا مخفيًّا.

إذن: فكلمة اقرأ جاءت مفتاحٌ للدِّراية قبل أن تكون مفتاح للعلم والمعرفة؛ ذلك لأنَّ مفتاح الدِّراية هو الوحي، وأنَّ الذي لا يوحى به لا يدرى

---

[75] الحجر 94 – 96.

[76] الإسراء 14.

به؛ مصداقًا لقوله تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[77].

أمَّا التعلّم فجاء مفتاحٌ للعلمِ؛ قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[78].

أمَّا التجربة والخبرة فجاءت مفتاحٌ للمعرفةِ؛ ذلك لأنَّ الخبرة المام بما ينبغي قبل الاقدام على الفعل؛ مصداقًا لقوله تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[79] فهذه التوصيات نتاج خبرة معرفيّة، التي لو لم تكن مجرَّبة عند لقمان ومختبرة ما وصّى بها بنيه، أي: لو لم تكن فعَّالة ولها مردود موجب وفي مرضاة الله جلَّ جلاله ما حرص لقمان على أن يوصي بها بنيه؛ ليكونوا من بعده خير خلف لخير سلف.

---

[77] الأحزاب 63.

[78] البقرة 31 – 33.

[79] لقمان 16 – 19.

اقرأ بمعنى بلّغ، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}[80]، فكلمة (اقرأ) جاءت وغاية التبليغ فيها، أي: بلّغ يا محمَّد ما أنزل عليك باسم ربّك الذي خلق؛ أي: أُقرئ غيرك كما أنت قرأت، وإن لم تفعل ذلك فما بلغت الرّسالة: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}[81]؛ وقال تعالى: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}[82]، أي: البلاغ المبيّن للحجّة وضوحًا وكما أنزل بأمر الله تنزيلًا فما عليك يا رسول الله إلَّا البلاغ المبين؛ ولهذا فالقراءة والاقراء رسالة واجبة التبليغ بيّنةٌ ببيّنةٍ.

إذن: فمعجزة محمَّد (اقرأ) أحدثت له نُقلة من الأميَّة إلى الدّراية، وجعلته رسولًا مبشّرًا ومنذرًا فمحمَّد هو من: (قرأ باسم الله، وبلّغ باسم الله، وبيّن باسم الله)؛ ولذا فمن يعطهِ الله كلّ هذا المعجزات ويخصّه بها ألَّا تكون هذه المعجزات مقيدة باسمه ومحصَّنة به.

العقلُ دراية من المستحيلِ إلى الممكنِ:

الدّراية من حيث مصدرها الأوَّل ليس بعلم مدرسي، ولا منهجي، ولا بثقافة عقليّة وإن وسعت، ولا بخبرة وتجربة، بل هي كشف الحجاب أمام من كان الحجاب بينه والحقيقة فاصلًا، وهذه لا تكون إلَّا إعجازًا ولا تمنح وتوهب إلَّا لمن يصطفيه الله لرسالة لا تكون إلَّا منه جلَّ جلاله.

---

[80] العلق 1.

[81] المائدة 67.

[82] النور 54.

ولذا فعلم الدِّراية علم من السّماء؛ لكشف حقيقة الأرض ومن عليها، وما ينبغي أن يتمَّ تجاهها: أخذًا ونهيًا وتجنّبًا، وهي العلاقة بين الخير والشّر وما يجب وما لا يجب تجاههما تخييرًا وتسييرًا.

ولأنَّه علم الدّراية فلا يكون إلَّا من السَّماء إلى الأرض، أي: لا يكون إلَّا تنزيلًا من المستحيل والمعجز إلى الممكن تيسيرًا، أي: تنزيلًا من الخالق إلى المخلوق الذي خُلق (أمرًا) من لا شيءٍ يذكر.

ومع أنَّ البعض يرى أنَّ المخلوق خُلق من اللاشيء، فإنَّ بعض علماء الفيزياء أثبتوا أنَّ اللاشيء هو الآخر مخلوق، أي: لو لم يكن اللاشيء مخلوقًا ما تحدثنا عنه دراية، ولأنَّه أصبح بين إثبات ونفي، فهو لو لم يكن ما كان بينهما.

والتساؤل هنا:

إذا أصبح البحث في اللاشيء بين يدي البحاث في علم الفلك والفيزياء، فهل يعدّ اللاشيء سابقًا على كلّ سابق، أم إنَّ هناك سابقًا عليه؟ وهل السّابق عليه مخلوقٌ أم إنَّه الخالق؟ وهل الشيء كان نشوءًا من لا شيء، أمّ إنَّ النّشوء لا يكون إلّا من شيء؟

ولأنَّ النّشوء لا يكون إلَّا في شيء؛ فهو في الوقت ذاته لا يكون إلَّا منه.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاءً خُلق مسيّرًا في أحسن تقويم، فإنَّه اختيارًا انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنًا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليّة أخلاقيَّة أخذته الصّحوة، والحيرة تملأ نفسه ندمًا فاستغفر لذنبه؛ فتاب

الله عليه، ولكن لم يتم ذلك إلّا بعد نفاذ الأمر، وهو: الهبوط به وبالأرض أرضًا، ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقيَّة، التي خُلق فيها الإنسان الأوّل (آدم) جنّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها، حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاء.

ولذا فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خَلقًا، أصبح الارتقاء بالنّسبة إليه مجرّد أملٍ، ومع ذلك فالأمل لا يتحقّق إلّا عملًا فمن عمل من أجله دراية بلغ مأموله، ومن لم يعمل فلا ارتقاء.

أمَّا بالنّسبة إلى النّشوء فهو نتاج خلق الشيء من الشيء ارتقاءً، كما هو خلق الكون، ثمّ خلق الأرض فيه وجودًا، ثمّ خلق الأزواج منها كما هو شأن آدم وزوجه، اللذين خُلقا من تراب الأرض جنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماء.

ولذلك كان الخَلق أوَّلًا، ثمّ جاء النّشوء مترتّبًا عليه، ومن بعده جاء خلق الأزواج من طين، ثمّ جاء خلق التزاوج من نطفة، فكان التكاثر على التسيير فيما لا شأن للإنسان به، وكان التخيير وفقًا للإرادة والرّغبة، التي تمتدّ بين شهوة عاطفيَّة، وخُلقٍ وحُسن تدبّر وضبط ضمير عن دراية.

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم خُلق على الارتقاء والأرض مرتقة في السّماء جنّة، ولكن بعلّة الشّهوة اختار أن يسلك سلوك المنحدرين دونيَّة، فأصبح النّعت سُفليّة يلاحقه منذ تلك السّاعة التي انحدر فيها؛ إذ لا منقذ له بعلل الاختيار انحدارًا؛ ولذا وجب التفكير في الزّمن وضبطه بين ماضٍ لن يعود، وماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدون أنَّ الجنّة حقيقة على قيد

الوجود، فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات ظلّت هناك في علوٍّ، أمَّا الأمل فظل منقطعًا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دنيا.

ولأنَّ علم الدّراية يتعلّق بالعلم والخلق والنشوء والارتقاء، فإنَّ الدراية ذات علاقة بالمستحيل والإعجاز والممكن، ولهذا فحيثما كان الخلق كان المستحيل، وحيثما كان النّشوء كان الإعجاز، وحيثما يكون الارتقاء يكون الممكن.

ومع أنَّ الممكن ليس بمستحيلٍ ففيه من الصّعب ما فيه، وعلى الرَّغم من ذلك يتحقّق على أيدي البعض دراية، ويتحقّق على أيدي البعض الآخر دونيَّة وسُفليّة؛ ولهذا فالممكن فيه من الموجب ما فيه، وفيه من السّالب ما يساويه، وفيه في دائرة الممكن (المتوقَّع وغير المتوقَّع).

ومع أنَّ الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع، فليس كلّ شيء ممكنًا، فهناك المستحيل الذي لا يخرقه إلّا معجز، وهناك المعجز الذي لا يخرقه إلّا ممكن، أي: إنَّ المستحيل لا يتحقّق إلّا مستحيلًا كما هو حال خلق الأكوان، وفتق الأرض منها، وهبوطها والأزواج على ظهرها إلى الحياة الدّنيا.

ولذلك فالخَلق صُنع الخالق، ولا إمكانيَّة للتمكّن منه فعلًا أو عملًا، أمَّا النّشوء فهو المعجز الذي يخلق من الشيء أشياء، كما هو حال الأرض وخلق كثير من الأزواج منها، ثمّ النّشوء التزاوجي ومعجزة الخلق من النّطفة، ثمّ الإظهار على علم الغيب دراية، وهو المعجز الذي أصبح في دائرة الممكن

نبأ ورسالات بين أيدي من اصطفاهم الخالق أنبياءً ورسُلًا عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

ومن هنا أصبح علم الغيب في دائرة الممكن بين أيدي النَّاس معجزة تبشّر بما يجب، وتنهى عمّا لا يجب، وترشد للحقّ، وتحرّض عليه.

فكان الارتقاء تطوّرًا من الجهل إلى العلم دراية، ومن محاكاة الطّبيعة وحياة الفطرة والأساطير والخرافة، وحياة المحاكاة تقليدًا بلا حُجّة عن غير بيّنة، إلى حياة المعرفة الواعية، والفكر المستنير الذي تلاقح بالعلم والدراية المعجزة من عند الله على أيدي الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاةُ والسّلامُ.

فأنتج عصرًا جديدًا فيه تُولّد الفكرة من الفكرة، وفيه أصبحت المحاجّة بين النَّاس المختلفين والمتخالفين بيّنةً ودليلًا عن دراية، وفيه العبر والمواعظ تؤخذ من التّاريخ، وفيه الحقوق بين النَّاس تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسؤوليَّات تُحمل عن إرادة، ومع ذلك فالصّدام والخصام والاقتتال بين النَّاس ظل في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع.

ولهذا فالحياة البشريَّة لم تؤسّس على الاتفاق، بل تأسّست على الاختلاف تنوّعًا، وسيظل النَّاس على الاختلاف إلى النّهاية إلّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[83]، ومن ثمّ فلا اتفاق بين النَّاس، بل الاتفاق لم يبقَ بينهم إلّا أملًا، ولا يسعى إليه إلّا الذين يدرون وعيًا دون أنْ تأخذهم الغفلة

[83] هود: 118، 119.

كما أخذت أبيهم (آدم) عليه السَّلام في لحظة الإغواء والشهوة عندما عصى ربّه، وأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها.

ولذلك وجب التذكّر، حتى لا تتكرّر الأخطاء، ووجب التدبّر دون غفلة عن العبر وما يوعظ، ووجب التفكّر فيما يُمكّن من الدِّراية ومعرفة الكيفيَّة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا، ومعرفة المعجز معجزًا، ومعرفة الممكن ممكنًا.

ولذا لا ينبغي أن يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ومن ثمَّ يعدُّ التوقّف أو الانكفاء سِمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، ممّا يخلق ارتباكًا وفوضى معرفيَّة لا تكون نتائجهما محمودة، فالتفكّر عن درايةٍ لا يكون إلّا واقعًا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه ارتقاءً.

والتفكّر ارتقاء وعن دراية هو الذي يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل تكمن فيها معطيات النّهوض الذي يمنح النَّاس حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع؛ لكونه يرتبط بالخوف، فالمخاوف بسمتها الإيجابيَّة المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتًا، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة، فالخوف لم يكن سلبيًّا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزًا مهمًّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائمًا إلى وجود خروقات طبيعيَّة وغير طبيعيَّة، تخرج عن نطاق المتعارف

أو الطبيعي الذي يجب أن يكون، وهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثًا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود درايةً، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرًا يمنح الإنسان وعيًا، ويمكّنه من الارتقاء إلى ما يجب.

اللاشيءُ دراية عقليّة:

اللاشيء دراية عقليَّة إحداث نُقلة لمعرفة ما لم يسبق أن عُرِفَ، وبلوغه في دائرة النسبيّة ممكنًا، أمَّا الدراية به (اللاشيء) فلا تكون إلَّا علم غيب يُنبَّئ به إنباء (رُسُل ورسالات)؛ ولذلك فخلق هيئة الشيء تسبق جعله شيئًا، وهيئات الأشياء تأخذ في التناهي كبرًا وصغرًا، فما يظهر منها للمشاهدة والملاحظة الحسيّة يعدُّ شيئًا، وما يختفي عنها يعدُّ لا شيئًا.

وخَلقُ اللاشيء يدلّ على شيءٍ مختفٍ في ذاته أو محيطه؛ حيث لا صفة له سوى صفة الخلق التي هُيأت له خلقًا، وجُعل على هيئتها اللاشيء، ومن ثمَّ فلا يعدُّ اللاشيء شيئًا إلّا بعد معرفته واكتشافه.

أمَّا الشيء على الرَّغم من أنَّه قابل للمشاهدة والملاحظة، فإنَّه لا يقتصر عليهما فهناك من الأشياء ما لا يشاهد: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ}[84]؛ فالكتاب مع أنَّه يشاهد فإنَّ ما يحتويه الكتاب لا يشاهد، بل يُدرك إدراكًا، فلو قلنا: الجهل شيء، نقول: التعلّم شيء آخر، ولو قلنا الأميَّة شيء نقول: الدراية شيء آخر، وإذا قلنا: الحقّ شيء، فالباطل شيء

[84] النحل: 89.

آخر، وسيظل الجهل لاشيء حتى يتحقّق، وسيظل التعلّم لاشيء حتى يتحقّق: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}[85]؛ فالسَّاعة بعد علمنا بها فهي المتحقّقة علما ودراية (كونها تعني شيئًا معلومًا)، وفي المقابل لحظة قيامها تعني: لا شيء معلوم.

ولأنَّ اللاشيء المتناهي في الدّقة يملأ الكون فهو إنْ قورن مع الشّيء من حيث المساحات التي يشغلها من الكون، يصبح الشيء لا شيئًا أمامه، ويكون اللاشيء هو الشيء العظيم، ولكن إن كانت المقارنة من حيث حجم المفردات الشيئيَّة واللاشيئيَّة فلا شكّ تكون الغلبة للمفردات الشيئية الظاهرة حجمًا كالكواكب والنّجوم، وهكذا كلّ شيء في دائرة المقارنة النسبيَّة يتبدّل ويتغيّر بين متوقَّع وغير متوقَّع.

فاللاشيء الذي يملأ الكون وجودًا يعدُّ مادّة خلق الأشياء، فتلك الأجسام المتناهية في الصّغر لو جمّعت بقوَّة الطّاقة والحركة الكونيَّة، لكوّنت شيئًا عظيم يمكن أن يكون بحجم نجمٍ أو كوكب، ومن هنا نستطيع القول: إنَّ هذا الشيء المتولّد بالطّاقة الكونيَّة أصبح بإرادة المشيء له شيئًا، مع أنَّه لم يكن مِن قَبل شيء.

ولذلك فاللاشيء هو المهيأ لوجود الشيء وفقًا للهيئة التي هيأها له الخالق، ومن ثمّ فوجود اللاشيء سابق على وجود الشيء.

---

[85] لقمان: 34.

ولأنَّ وراء كلّ مخلوق خالق والشيء مخلوق، إذن: فمن ورائه خالق، وإلّا هل هناك من يظن كما ظنّ لورانس كراوس أنَّ اللاشيء خُلق هو الآخر من لا شيء؟

أقول: بما أنَّنا نصفه باللاشيء، إذن: فلا يمكن أن يكون خالقًا؟ أي: لا بدّ أن يكون مخلوقًا، وبما أنَّ الشيء مخلوق من اللاشيء، واللاشيء من ورائه خالق، إذن: لا بدّ أن يكون الشيء مخلوقًا ومن ورائه خالق لم يسبقه خالق: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[86].

إذن: اللاشيء لو لم يكن موجودًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه موجود فهو قابل للنّفي والإثبات، وإلّا هل هناك من ينفي وجود شيء أو يثبته لو لم يعرفه أو يعلم عنه، أو أنَّه به أُعلم وأُدري؟

وبما أنَّنا نتحدث عن اللاشيء إذن: نتحدث عن شيء حتى وإن لم نتمكّن من رؤيته، ولكن ما الفرق بين اللاشيء والشيء؟

اللاشيء هو الذي على الرَّغم من وجوده نجهله، وبتناهيه في الصّغر لا يخضع للمشاهدة العينيَّة، ولكن إن حال بينه وبين معرفته جدار عاتم يمنع مرور الضّوء عبره فلا يخفيه عن خالقه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[87]، وفي المقابل الشيء نعلمه، ونشاهده، ونلاحظه، وندركه ونحسُّ به أو نستشعر.

---

[86] الواقعة: 60.

[87] آل عمران: 5.

ولأنَّ اللاشيء لا يتولّد إلّا في دائرة المجهول فسيظل هناك لاشيء، حتى لحظة اكتشافه التي من بعدها يصبح شيئًا وإنْ كان متناهٍ في الصّغر والدّقة.

فاللاشيء هو على غير صفة، أي: لو كان على صفة لكان له مسمّى، ولأنَّه يفتقدها، فهو لا شيء، أمَّا الشيء فله صفة ومسمى، مثل: الأرض، والشّمس، والقمر، ومثل: الكائنات والأدوات المشاهدة وغيرها من المتنوّع والمتعدّد.

وكما يتمدّد اللاشيء في دائرة المجهول نكرة فكذلك الشيء يتمدّد نكرة حتى يتمّ تمييزه: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ}[88]، فشيئًا هنا تعني: المجهول والمعلوم؛ إذ لا تحديد لشيء بعينه.

أمَّا اللاشيء فيعدُّ مادّة خلق الشيء أو طينته التي لو لم تكن مخلوقة ما خُلق الشيء منها: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[89]، فالإنسان كونه شيئًا، تعني: أنَّه كان لا شيئًا، سوى وجود عناصر خلقه مبعثرة في تراب الأرض جنّة: (عندما كانت مرتقة في السماء)، واللاشيء مثله مثل الشيء لا بدّ وأن يشغل حيّزًا، وإن كان الحيّز متناهٍ في الدّقة والصّغر ومبعثرًا في التراب.

---

[88] البقرة: 216.

[89] مريم: 9.

وعليه: وجب علينا تبيان ما يدلّ عليه مفهوم اللاشيء، حتى لا يؤخذ عنَّا ما أُخذ عن تنظيرات العالم الفيزيائي لورنس كراوس الذي قال: "إنَّ الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له"[90]، أي: لاشيء يمكن أن يشار إليه بالشيء قبل خلق الكون من لاشيء.

أمَّا نحن فأسّسنا تنظيراتنا وفقًا لقانون الخلق: (لا مخلوق إلّا ومن ورائه خالق)؛ حيث لاشيء إلّا ومن ورائه مشيء له، ممّا يجعل المشيئة سابقة على المشاء؛ ولذلك فالمشيئة قرار مسبق على خلق شيء لم يسبق له أن كان شيئًا.

غير أنَّ العالم الفيزيائي كراوس يحاول أن يرسّخ نظريَّته: (كون من لاشيء) بمفهوم: (خَلقُ الكون بلا خالق)، معتبرًا أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء، ثمّ يرى من زاوية أخرى أنَّ الكون كان نتيجة انفجار تلك الذَّرة المتناهية في الصّغر[91].

وإن سلّمنا بخلق الكون من لاشيء فهل الكون خلق نفسه من لاشيء لحظة الانفجار، أم أنَّ خلقه من لا شيء كان مترتّبًا على ذلك الانفجار، أم أنَّ خلقه من لاشيء كان مرتبطًا بذلك المنفجر؟

وإذا سلمنا أنَّ (الكون خُلق من لاشيء)؟ فهل خلق نفسه عن تدبّر ودراية أم هكذا عبثًا؟ وإذا كان الانفجار هو سبب خلق الكون من لاشيء، فكيف يخلق الكون من لاشيء والانفجار شيء في ذاته؟ وهل يمكن أن

---

[90] A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012.

[91] المصدر السابق.

يحدث الانفجار لو لم تتوافر أسبابه؟ وكذلك هل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم يتوافر له مكان وزمان؟ وكيف يُقبل أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء وفي ذات الوقت يقال: إنَّه المنفجر من شيء سابق عليه يسمي الذّرة؟

وإذا سلمنا أنَّ ذلك المنفجر هو ما وُصِف بالذّرة، أو النّقطة الصّغيرة فكيف يصحُّ لبعض الفيزيائيين وصفها ذرّة وهم لم يتمكّنوا من معرفةٍ تمكّنهم من الوقوف عند أثرها، وبخاصّة أنَّ لحظة الانفجار لا بدّ أن تكون فاصلة بين المنفجر وانفجاره وما سيترتّب عليه لاحقًا؟

وعلى الرَّغم من هذه التساؤلات والافتراضات لكن اكتشافات العالم الفيزيائي كراوس قد أحدثت نُقلة في علم الفيزياء وبخاصّة تعريفه اللاشيء الذي لم يعدّ لا شيئًا؛ كونه كما قال: "يعج بالجسيمات الافتراضيَّة، التي تظهر وتختفي من الوجود في فترات زمنية غاية في الصّغر، لدرجة أنَّه لا يمكن مشاهدتها"[92].

إنَّ قول كراوس: إنَّ اللاشيء لم يعدّ لا شيئًا هو بحقّ إضافة معرفيَّة لمعارفنا، لأنَّ اللاشيء لو لم يكن شيئًا، ما تحدثنا أو تساءلنا عنه، وإلّا هل يمكن لنا الحديث عن شيء لو لم يكن موجودًا؟ بمعنى: لو لم يكن اللاشيء موجودًا ما نفينا وجوده، ولهذا فالقاعدة العلميَّة تقول: (نفي اللاشيء يثبت وجوده شيئًا).

ومع ذلك فاللاشيء يُعدُّ المجهول المحيّر الذي تتوافر معطيات وجوده وهو لا يتوافر إلّا أثرًا، ممّا يُحفِّز البحاث على صياغة فروض أو تساؤلات

[92] المصدر السابق.

علميَّة تستند على ما يتوافر من معلومات بهدف البحث عن الجزء المفقود منها، فالعالم كراوس انطلق من المشاهد الكوني إلى ما لم يكن مشاهدًا، حتى اكتشف أشياء متناهية الصّغر والدّقة، ولا يمكن رؤيتها بالمشاهدة العينيَّة، وعندما تقارن بالأشياء الظّاهرة للمشاهدة توصف بأنَّها لاشيء، أي: وكأنَّها لاشيءٍ.

إذن: فاللاشيء لا يعدُّ غير موجودٍ، بل يعدُّ غير مكتشفٍ، وغير مصنّف، ومع ذلك فنحن مهما بلغنا من العلم نظل في حاجة للمزيد المعرفي حتى ندرك لا شيئًا ونردي بها علمًا ومعرفةً: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[93]،

وبما أنَّنا لم نؤتَ من العلم إلّا قليلًا إذن: فما نجهله هو الأكثر؛ ولذا وجب البحث والتقصي العلمي الممكِّن من معرفة ما نجهله حتى يظهر اللاشيء للوجود شيئًا معلومًا وعن دراية.

إنَّ معرفة اللاشيء لا يقتصر على ما يمكن مشاهدته بالمناظير الدّقيقة، بل يمتدّ إلى ما يكتشف أثره، حتى وإن لم يخضع للمشاهدة، وفي هذا الأمر يقول كراوس: "على الرّغم من أنَّنا لا نستطيع رصد الجسيمات الافتراضيَّة مباشرة، إلا أنَّنا نستطيع قياس آثارها بشكل غير مباشر"[94].

---

[93] الإسراء 85.

[94] 'A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012

ومن ثمَّ فاللاشيء على الرَّغم من وجوده فهو المجهول معرفةً، ويوصف اللاشيء بهذه الصّفة اللاشيئيَّة لأنَّه غير المميّز بخاصيّة منفردة، ممّا يجعل الشيء واللاشيء في موقع النَّكِرة؛ حيث انتفاء أو غموض الصّفة والخاصيّة والنّوع.

ولأنَّ الاختلاف من أجل المعرفة الواعية ظاهرة موضوعيَّة أصدر العالم لورانس كرواس حُكمًا مطلقًا بأنَّ: (الكون خُلق من لا شيء)، ولكن بهذا الحكم اختلف بعض العلماء معه، وبعضهم خالفه مخالفة تامّة، وفي اعتقادنا الاختلاف والخلاف على الشيء لا يلغيه، بل يُثبته شيئًا.

ولأنَّ اللاشيء يمثل 99% من كتلة الكون فهل هذا اللاشيء هو مادَّة خلق الكون التي خلق نفسه منها؟ أمّ إنَّ اللاشيء هو ذلك الذي ليس له وجود؟

وحتى لا يعلق في الأذهان شكّ أو ظنّ فإنَّ ما يقصده لورانس كراوس، بقوله: (الكون خلق من لاشيء وبدون خالق) هو أنَّ الكون قد أوجد نفسه من غير وجود سابق عليه.

ومع أنَّ كراوس قد أصدر نظريتَّه: (كون من لاشيء)، فإنَّ السؤال: كيف جاء هذا الكون العظيم من لاشيء؟ في الوقت الذي يقول فيه: "إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه "اللاشيء". وأكبر طاقة في الكون تشكل 70% من الطَّاقة الكونيَّة، التي هي موجودة في الفضاء الخالي، ونحن لا نمتلك أيَّة فكرة عن سبب وجودها هناك"[95].

[95] المصدر السابق.

ومن هنا وجب فكّ اللبس والغموض الذي تثيره نظريَّة العالم الفيزيائي لورنس كراوس بقوله: "(إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه اللاشيء)، وفي الوقت ذاته يقول: (خُلق الكون من لا شيء)، ثمّ يقول: (لا يعدُّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئًا)"[96].

وإذا كان اللاشيء يسيطر على الكون، وأنَّ اللاشيء هنا هو: المكتشف الذي تعرّف عليه كراوس، والذي قال عنه: (لا يعدّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئًا) فكيف لنا بقبول ذلك، وهو قد أسّس نظريَّته على قاعدة: (كون من لا شيء)؟

فالكون لو خُلق من لا شيء فلا يمكن أن يسيطر عليه اللاشيء، وفي هذا الأمر كمن يقول: خُلق الإنسان من تراب والتراب يسيطر عليه، مع العلم لو سيطر التراب على الإنسان لكان الإنسان جدارًا.

ومع أنَّ نظريَّة كراوس تأسّست على: (كون من لاشيء) فإنَّها تتحدث عن الشيءِ (الكون) المملوء بالأشياء (دقيقها وعظيمها)، وهي التي لا ترى خالقًا للكون.

فإذا سلّمنا بهذه المقولات المتناقضة فإنَّنا كمن يقول: خُلقت تلك الذّرة من تلك الذّرة، وخُلقت الأرض من الأرض، وخُلقت السّماء من السّماء، وخُلق الماء من الماء، وخُلق الإنسان من الإنسان!

إنَّ خلق الكون من لاشيء وفقًا لتعريف كراوس يعني: أنَّه خُلق من شيء متناهٍ في الدّقة، وقد ترك أثرًا، ولكن إذا أجزنا هذا فمن أين جاء ذلك

[96] المصدر السابق.

اللاشيء المتناهي في الدّقة؟ أي: فمن أين خُلق ذلك الشيء السّابق على خلق الكون والذي يملأه لا شيئًا؟

فنقول: يعدُّ اللاشيء ما نجهله ونسعى لمعرفته، واكتشاف أسراره، وسيظل أمره محيّرًا للباحثين حتى يتمّ اكتشافه، وتقصّي الحقائق المخفيّة وراءه، ومعرفتها عن بيّنة ودراية، من أجل إضافة شيءٍ جديدٍ لمعرفة اللاشيء الذي يملأ الكون ظلمة وعتمة.

أمَّا قول كراوس: "إنَّ معرفة الجواب لا تعني شيئًا، ولكن اختبار المعرفة يعني كلّ شيء"[97]. فأمره جدلي؛ كونه لا يرتبط بمسلّمة علميَّة، وبتحليل مفهوم المقولة: (معرفة الجواب لا تعني شيئًا) نعرف أنَّ المفهوم المقابل لها هو: (عدم معرفة الجواب تعني شيء)، ونحن نرى أنَّ الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر؛ ذلك لأنَّ الجواب يتمدّد في دائرة الممكن في الحيّز (مِن..... إلى) ممّا يجعل (مِن) الطّرف المرسل للإجابة وهو: الذي يعرفها، ويجعل من الطّرف (إلى) اتجاه الهدف، أو الطّرف المستقبل للإجابة وهو: الذي يجهلها، وفي كلتا الحالتين: الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر، ولكن من حيث الأهمية: الذي تتوافر لديه معرفة الإجابة مسبقًا، فلن يضاف إليه شيء؛ لكونه مصدر المعرفة، وفي المقابل الذي عرف الإجابة بعد أن كان يجهلها فقد عرف شيئًا جديدًا، ومن ثمَّ فالطّرف الذي يعرف الإجابة، لن يعرف شيئًا جديدًا، ممّا يجعل محصّلته: (لاشيء)، أمّا الذي لم يكن يعرفها ثُمّ تحصّل عليها فقد عرف شيئًا.

[97] المصدر السابق.

وفي كلتا الحالتين السَّابقتين، التوقّف عند حدّ معرفة الجواب يعني: (اللاشيء)، ولكن الذي يعني شيء هو: معرفة الشيء في ذاته، وكيف خُلق ذلك الشيء: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[98]، يفهم من هذه الآيات عدم وجوبيَّة التوقّف عند حدّ خلق الأشياء التي منها: (الإبل، والسّماء، والجبال، والأرض)، فمع أنَّ هذه المخلوقات أشياء عظيمة، لكنّ الشيء الأعظم معرفة الكيفيَّة التي خُلقت عليها الإبل، والكيفيَّة التي بها رفعت السّماء، والكيفيَّة التي بها نصبت الجبال، والكيفيَّة التي بها سُطحت الأرض، فهذه الكيفيَّات الخلقيَّة تستوجب الانتقال دراية معرفيَّة من الشيء المشاهد (الصورة) إلى الكيفيَّة التي بها وعليها خُلقت الأشياء، ومن ثمّ تصبح معرفة الشيء أيسر بكثير من معرفة الكيفيَّة (اللاشيء).

ومع أنَّ الدراية باللاشيء عظيمة، فإنَّ معرفة الشيء أيضًا ضرورة ذات أهميَّة عالية، لأنَّنا لو لم نعرف الشيء عن بينة واختبار ما اكتشفنا اللاشيء دراية، ومن هنا فالمعرفة شيء، واختبارها شيء آخر، ولكلٍّ أهميَّته، أمَّا القول: بـ(اختبار المعرفة يعني كلّ شيء) فلا يؤخذ بالمطلق، ولكن في دائرة النّسبيَّة ما يبدو لك مهمًّا قد لا يبدو لغيرك.

وإذا أجزنا مقولة العالم الفيزيائي كراوس: (اختبار المعرفة يعني كلّ شيء) فلا بدّ أن نُخضع ما قاله عن خَلق الكون من لاشيء إلى الاختبار والتجربة قبل أن نأخذ بمقولته، ولكن هذا ضرب من المستحيل؛ إذ لا إمكانيَّة لإخضاع الكون للاختبار والتجريب، فهذا الأمر يتعارض مع القاعدة الخلقية:

---

[98] الغاشية: 17 ـ 20.

(المحاط لا يحوط محيطه)؛ فعلى سبيل المثال: الزّجاجة المملؤة ماء، تظل محيطة للماء الذي يملأها، ولكن أن فرّغت منه وترك أمره حرًّا؛ فلا إمكانيَّة للماء أن يحوطها وهكذا: (كلّ شيء) أو (لا شيء) محاط لا يمكنه إحاطة ما يحوطه.

وبما أنَّ الكون كما يراه الفيزيائيَّون يبدو مُسطّحًا، ويتمدّد متسارعًا في كلّ الاتجاهات، إذن: فلن يرسم بعد هيكل واضح للهيئة التي ينبغي أن يكون عليها كونًا.

وكذلك إذا كان الكون غير مكوّر فلا يمكن لأحدٍ أن ينظر أمامه ليرى مؤخرة رأسه، فهذه لا تتمّ إلّا على سطح الأرض المكوّرة، لكن الكون حتّى وإن افترضناه مكوّرًا ونحن في قلبه فلا إمكانيَّة لرؤية ما على سطحه، حتى وإن كانت مؤخرات رؤوسنا.

ولأنَّ علماء الفيزياء يتحدّثون عن كونٍ منفجر ومتمدّدٍ، فهم يتحدّثون عن شيء معلوم الدّلالة، وغير معلوم الكيفيَّة، فهو معلوم الدّلالة من حيث خضوع كثير من مفرداته إلى المشاهدة والملاحظة، أمَّا كونه غير معلوم الكيفيَّة فهو من حيث لا أحد يعلم كيفيَّة خلقه، ولا لحظتها، بل أصبح علماء الفيزياء يقرّون بوجود أكوان غير الكون الذي نعيش في قلبه، ممّا يدعو إلى القول: بأنَّ كوننا بما فيه من شيء ولا شيء، فهو شيء عظيم يدلّ وجوده على وجود أكوان أخرى نحن لا نعلم كيفيتها؛ حيث لا شيء يشاهد، ومع ذلك فإنَّنا دراية نعلم بوجودها كما نعلم بالسَّاعة التي لا نعلم بساعتها ولن.

ولكن إن تمكّن عقل الإنسان من اكتشافها دراية؛ فسنرى شيئًا أعظم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[99]، فماذا يعني قوله: (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)؟ تعني: سبعة أكوان: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[100]، هذه الآية تؤكّد أنّ السّبعة أكوان هي أطباق فوق بعضها متوازية الوجود؛ حيث لا تماس، ولا اصطدام، كلّ في فلكه بين متمدّدٍ ويتمدّد وكأنه في الفراغ يسبح.

ولأنَّ الأكوان خُلقت: (سماوات وأراضي) فسيظل اكتشافها في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع، ولهذا أصبحت المؤشّرات بين أيدي علماء الفيزياء تدلّ على وجود أكوان خارج نطاق كوننا.

ومع أنَّ عالم الفيزياء كراوس لم يتمكّن من معرفة أيّ نوع من الأكوان هو كوننا، فإنَّه أصدر حكمًا بأنَّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء، وهنا أتساءل:

كيف يمكن له أن يحكم على الكون بأنَّه مخلوق من لاشيء، وفي الوقت ذاته لا يعرف ما يميّز الكون الذي يعيش فيه عن بقية أنواع الأكوان الأخرى؟

ولأنَّ لورنس قال: (خُلق الكون من لاشيء) فهو يرى لا ضرورة لوجود إله يخلقه، ولكن إنْ سلّم البعض بذلك؛ فالسؤال:

---

[99] الطلاق: 12.

[100] نوح: 15.

هل كلّ كون قد خُلق من لا شيء كما هو حال الكون الذي نظّر له كراوس؟ أم أنَّ كوننا فقط هو الذي خُلق من لاشيء، وبقيَّة الأكوان من ورائها خالق؟

وكيف لنا قبول ذلك والعالم الفيزيائي يقرّ في نظريتَّهِ: (كون من لاشيء) بأنَّه لا استطاعة لرؤية الانفجار العظيم؛ حيث وجود جدار عاتم يمنع مرور الضوء عبره؟[101].

ومن ثمَّ ألا يكون هناك تناقض كبير بين قوله: (كون من لاشيء)، وقوله: (لا إمكانيَّة لمعرفة بداية خلق الكون من لاشيء)؟ وإذا لم يتمكّن من بلوغ نقطة بداية خلق الكون، فكيف لنا بحكم قاطع يقرُّ خلق الكون من لاشيء؟

أي: كيف لنا أن نقرّ بخلق الكون من لاشيء، ونحن متيقنين بأنَّه لا إمكانيَّة لبلوغ نقطة البداية، التي قد تُمكّن من معرفة ما إذا كان الكون قد خُلق من لا شيء، أم أنَّه قد خُلق من شيءٍ؟

ومع ذلك يقول العالم كراوس: "نحن نعلم بدقة، 1%، أنَّ الكون مسطّح، ولديه طاقة كلية تساوي الصّفر؛ ولذلك يمكن للكون أن يوجد من لاشيء، ومن تلقاء ذاته"[102].

---

[101] New Mystery of Invisible Matter Generated by Cosmic Collision, www.space.com, 17 August 2007.

[102] المصدر السابق.

عالم لا يمتلك من الحجّة إلّا 1% وبها يحكم حكمًا مطلقًا على أنَّ الكون خُلق من لاشيء فهل يمكن أن تُجاز هذه الحُجّة وهي تفتقد 99% من الحقيقة؟

وفقًا لهذه النّسبة العالية التي تجيز عظمة اللاشيء أمام الشيء، يقول كراوس: "لو أزلنا من الكون كلّ شيء يُرى من نجوم ومجرّات وحشود مجرية فالكون لن يتأثر عمليًّا[103] يدلّ هذا النصّ: على أنّ اللاشيء هو الصّفة الغالبة على وجود الكون وبخاصّة أنَّ كلّ الكون المرئي يمثل 1% في كون يحوي على 29% مادة معتمة، 70% طاقة معتمة، وبذلك ليست لنا قيمة على الإطلاق[104].

عالم يرى قيمة الإنسان مادّة، لا بدّ له أن يحكم بانعدام قيمته، ولكن لو قَلبَ الإنسان الصفحة في أيِّ اتجاه من اتجاهات القراءة السليمة ليقرأ دراية قوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[105]. لأمكن له أن يتذكّر، ويتدبّر، ويفكّر، ومن ثمّ لأمكن له الأخذ بما يجب والانتهاء عمّا يجب، وهنا تكمن قيمة الإنسان وعظمة الخالق.

الشيءُ دراية عقليَّة:

الشيء دراية عقليَّة علم يقين؛ إذ الحقيقة بين يديك منزّلة تنزيلًا مما يجعل للشيء دلالة وجوديَّة تشير إلى المشاهد، والملاحظ، والمدرَك ومع ذلك يعدُّ الشيء نكرة حتى يصنّف، ولا يكون شيئًا إلّا بفعل المشيء، ومن ثمَّ فلا

---

[103] المصدر السابق.

[104] المصدر السابق.

[105] النمل: 88.

شيء إلّا والكينونة تسبقه خلقًا؛ أي: لا شيء إلّا من بعد كينونة (هيئة) يكون عليها قبل أن يكون شيئًا.

ولأنَّه لا شيء إلّا على هيئة فكيف تهيأ الشيء كونًا قبل أن يكون شيئًا من لاشيءٍ؟

التهيؤ للشيء لا يكون إلّا عن علمٍ ودراية، وهذه لم تكن من مكوّنات الشيء، بل من مسبّبات وجوده، فلو لم تكن سابقة عليه ما تهيَّأ الشيء شيئًا، ومع ذلك علينا أن نميّز بين هيئة، ومهيئ، ومتهيء؛ فالهيئة صورة ما يكون عليه الشيء قبل أن يكون شيئًا، والمهيئ هو من يعلم أمر الهيئة ويجعل لها صورة قبل أنْ تصير شيئًا مفعولًا، والمتهيئ هو اللاشيء: (طينة التخلّق)، التي منها يُخلق الشيء، وبها يُميّز حتى يصبح على الهيئة شكلًا وصورة.

وعليه: فقاعدة خلق الشيء: (لا شيء إلّا على مشيئة، ولا مشيئة إلّا من مشيء): {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}[106]، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[107]؛ فهذه من مشيئة الخالق التي من خلالها ندري أنَّه يعلم ما لا نعلم.

ولهذا فالهيئة تصوّر تام للكينونة التي سيكون الشيء عليها قبل أن يكون شيئًا، والقاعدة: (المهيئ يسبق الهيئة).

وبما أنَّ الهيئة هي التي يُصوّر الشيء عليها فهي لا تصوّر إلّا بفعل المهيئ، والقاعدة: (الهيئة تسبق المهيَّأ).

---

[106] البقرة: 105.

[107] هود: 118 . 119.

ولأنَّ الشيء لا يكون شيئًا إلّا على هيئة تسبقه؛ فالقاعدة: (الشيء يُفعل ولا يَفعل)، ومن هنا فالشيء نكرة لو كان يَفعل لخلق نفسه من لاشيء قبل أن يكون شيئًا، وهذا ما يراه كراوس، ونحن نرى لاشيء إلّا بفعلٍ، ولا فعل إلّا من فاعل، ولأنَّ الشيء يفتقد قوَّة الفعل وإرادته، إذن: فكيف له بخلق نفسه؟

وحتى لا يكون حوارنا سفسطائيًّا فهل يمكن أن يوجد الكون (الشيء) بغير إرادة؟ أي: هل يُخلق شيء أو يُصنع عن غير دراية؟ وهل يمكن أن يُخلق شيء أو يصنع عن غير هيئة؟ ثمّ هل يُخلق شيء من غير مادّة لخلقه؟ وهل يُخلق شيء في غير مكان وزمان؟ وهل المكان والزّمان من مكوّنات الكون (الشيء)، أمّ أنَّهما المحتويان وجوده؟

وبما أنَّ الشيء يفتقد لكلّ هذا فهو بلا شكّ لا يمتلك صفة الخلق، ولأنَّه يفتقدها فلا يكون إلَّا ومن ورائه خالق: (وراء كلّ مخلوق خالق).

ولو أخذنا خلق الإنسان كمثال: فهل الإنسان خَلق نفسه؟

لا خلاف على أنَّه لم يخلق نفسه، وبما أنَّ الإنسان لم يخلق نفسه حتى من شيء فكيف للبعض أن يقبل بخلق الكون نفسه من لاشيء؟

وحتى لا نذهب بعيدًا، ويتمّ التمسّك بخلق الكون من لاشيء فالأرض التي هي أقرب وجودًا من وجودنا، ممّ خُلقت؟

لا شكّ أنَّ الإنسان قد خُلق من الأرض وهذا يعني: أنَّه خُلقَ من شيءٍ، ولأنَّ الأرض قد خُلقت بعد الانفجار العظيم بآلاف السّنين، فكيف خُلقت؟ وما الذي كان وراء خَلقها؟

فهل كانت الرّغبة هي التي وراء خلقها؟ أم الضّرورة؟ أم المشيئة؟ أم ماذا؟ وإن خُلقت هي الأخرى من لاشيء فما هو ذلك اللاشيء الذي خلقت منه؟ وهل هو بالتمام مثل ذلك الشيء الذي خُلق الكون منه، أم أنَّه اللاشيء آخر؟ وإن كان الآخر، فما العلاقة بينه وذلك اللاشيء الذي تفجّر معه، أو تفجّر قبله؟

وإذا عرفنا كيف جاء اللاشيء الذي خُلقت الأرض منه فهل لنا بمعرفة كيف جاء اللاشيء السّابق عليه؟ ثمّ هل يمكن أن نقف على اللاشيء إنْ لم يكن هناك لا شيء؟

كلّ هذه الأسئلة ستكون متّصلة إلى النّهاية، ولكن من الذي أوجد النّهاية؟

ستكون الإجابة بالطبع الذي أوجد البداية، وهنا تكمن الإجابة، وهي: لكلّ شيء بداية ونهاية، ومن ثمّ فلا بداية لشيء إلّا مشيئة الخالق، ولا نهاية لشيء إلّا مشيئة الخالق: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}[108]، ذلك لأنَّه الفعّال لما يريد: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[109].

وإذا كان الكون قد خُلق من لاشيء، فهل كان ذلك اللاشيء وجودًا، أم أنَّه لا وجود؟ فإن كان وجودًا فمن الذي أوجده؟ وإن لم يكن وجودًا، إذن؛ فكيف خَلَقَ الكون وجوده عن غير وجود؟

---

[108] الحديد: 3.

[109] الأنبياء: 104.

إذن: الشيء لو لم يكن وجودًا ما تساءلنا عنه، ولأنَّنا نتساءل عن وجودٍ، فالوجود لا يكون إلّا بفعل فاعل: (بخلق خالق) وخالق الشيء:

. لا يمكن أن يكون شيئًا.

. لا يمكن أن يكون لا شيء.

. ولا يكون شيئًا آخر.

ولذلك فخالق المادّة لا يمكن أن يكون مادّة، وخالق الرّوح لا يمكن أن يكون روحًا، فالخالق لا يكون إلّا خالقًا، (الخالق يَخلق ولا يُخلق)، يُبدِعُ ولا يُبدَعُ: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[110].

والشيء وإن كان نكرة، فلا بدّ وأن تكون له صفة تميّزه، ومتى ما تمّ التعرّف على صفته أصبح الشيء المنكّر معرفة، فالشيء يُطلق على أيّ شيء مادّي أو غير مادّي، ولكن عندما يحدّد الشيء مثل السّماء يصبح اسم السّماء يدلّ على شيء دون غيره، وحينها لا تكون السّماء نكرة.

وهكذا فأيّ حديث عن أيٍّ شيء غير موصوف هو حديث منكّر، ولكن بتحديد المكان والزّمان والدّلالة والمعنى للشيء، يصبح الشيء غير منكّر، ونأمل ألّا يَفهم البعض أنَّ الشيء لا يرتبط إلّا بالمشاهد والمحسوس، بل دلالة الشيء تمتدّ من المفهوم والمعنى إلى الفعل والهيئة والشّكل والصّورة:

---

[110] البقرة: 117.

{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}[111]، وكلّ شيء خُلِق يحاط ولا يحيط: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[112].

وعليه: فالقاعدة المنطقيَّة وفقًا لمنطق أرسطو تقول:

كلّ شيء مخلوق.

الكون شيء.

إذن: الكون مخلوق.

وبما أنَّ الكون شيء؛ فالشيء لا يكون إلّا مخلوقًا، ولا يكون إلّا في حيزٍ، ولا يكون إلّا محدودًا حتّى وإن تناهى في الصّغر أو الكبر، والشيء حتى وإن أحاط بشيء آخر لا يكون إلّا محاطًا: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[113].

فوسِع كرسيُّه، تعني: وسِعت إحاطته، أي: وسِعت إحاطة الخالق الأكوان (سماوات وأرضين)، والكرسي هنا، هو كرسي السّعة والإحاطة الاستيعابيَّة، وليس كرسي الجلوس فهو يدّل على خلق محيط لإحاطة الأكوان جميعها، مما يشير إلى أنَّ الأرض جزء من كوننا، وكوننا جزء من الأكوان المحاطة بالكرسي، وهو المخلوق لاحتواء الأكوان: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[114].

---

[111] الأنعام: 101.

[112] البقرة: 255.

[113] البقرة: 255.

[114] النمل: 88.

وكما سبق تبيانه في تعدّد الأكوان وما توافر من دلائل علميَّة لدى علماء الفيزياء والفلك، فإنَّ بيِّنة الخالق دراية تدلّ على وجودها يقينًا: {لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[115]؛ فالسّبعة الطرائق، هي: الأكوان التي فوق الكون الذي نحن جزء منه، (وسبعة أكوان فوقكم)، تشير إلى علو الأكوان السّبعة المرتّبة طباقًا فوق بعضها البعض، وهي فوق الكون الذي نحن جزء منه، ولكن العلو لا يقتصر على علو المكان أو الحيّز، بل يدلُّ على علو المكانة أيضًا.

ولهذا جاءت الطرائق بمعنى الخصوصيَّة والتميّز في كلّ كون من الأكوان السّبعة التي تعلو كوننا الذي هو الآخر يتميّز بخصوصيَّته: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[116]. تؤكّد هذه الآية أنَّ السَّماوات السّبع هي الأكوان التي فوق كوننا، وكلّ كون منها منفصل عن غيره، ولا يتجاوز الطبق الذي خُلق فيه؛ ولذا فكلمة طباق تدل على العناية والرّعاية والتنظيم المصنّف لكلّ كون، وهذا ما لم يتمكّن علماء الفيزياء والفلك من بلوغه، على الرَّغم من أنَّهم أصبحوا متيقّنين من تعدّد الأكوان وما كوننا إلّا أحدها، والأكوان المتعدّدة تسمى أحيانًا بالأكوان المتوازية[117].

وعليه، فالقاعدة وفقًا لمنطق أرسطو تقول:

---

[115] المؤمنون: 17.

[116] الملك: 3.

[117] Have cosmologists lost their minds in the multiverse? May 13, 2014 by Luke Barnes, The Conversation

كلّ شيء محاط لا يحيط بمحيطه.

الكون شيء محاط.

إذن: الكون لا يحوط محيطه.

وكذلك القاعدة المنطقيَّة تقول:

كل محاط مخلوق.

الكون محاط.

إذن: الكون مخلوق.

وعليه: بما أنَّ للكون محيطًا، فهو شيء، ولأنَّه المحاط فمحيطه شيء آخر.

ولأنَّ الكون شيء، ومحيطه شيء آخر، إذن: فكيف (خُلق الكون من لاشيء)؟

وكذلك فإذا كان ذلك الانفجار هو شيء عظيم، ألا يكون المنفجر شيء أكثر عظمة؟ وإذا كان الانفجار شيء والمنفجر شيء آخر فكيف يمكن لنا أن نقول: (خُلق الكون من لاشيء)؟

وهل ذلك الشيء المنفجر يمكن له أن ينفجر لو لم تُخلق فيه معطيات الانفجار؟ وهل الانفجار لو لم يزمَّن له وقت، يمكن أن يبلغ لحظة انفجاره؟ أي: هل ينفجر المنفجر لو لم يكن مؤقتًا؟ وهل يمكن أن ينفجر شيء في غير مكان وزمان؟

وبما أنَّه قد انفجر، ألا يعني ذلك أنَّ انفجاره بفعل الفعّال؟

ولأنَّه لا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، ألا يكون المشيء أعلم بأمر المنفجر من الذي عَلِمهُ؟ {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[118].

ومن ثمّ فالقاعدة المنطقيَّة تقول:

وراء كلّ شيء مشيء.

الانفجار الكوني شيء.

إذن: وراء الانفجار الكوني مشيء.

ولأنَّ وراء ذلك الانفجار الكوني مشيء، إذن: لو لم يشأهُ المشيء كونًا ما كان انفجاره لحظة الولادة.

ولأنَّ الانفجار الكوني وُصِفَ بأنَّه عظيم، فهل يمكن أن يكون انفجارًا عظيمًا لو لم يؤسّس على قانون؟ وهل يمكن أن يكون القانون لو لم يسبقه مقنّن: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[119].

الفراغُ دراية عقليّة:

الفراغ علمًا ودراية عقليّة خُلق لأن يُملى حركة ومتحرك وهو جزء كوني عظيم، يشكل إطارًا من الطّاقة الواقية للأشياء من الاحتكاك، ويجعل الفراغات بينها مجالًا للتمدّد والحركة، ويعدُّ الفسحة المستوعبة لحركة الكواكب والنّجوم والمجرات والأجسام والطّاقة.

---

[118] يوسف: 76.

[119] المعارج: 41.

فالفراغ وجود لا يعطي مدلولات مادّيَّة وإن ملأته الأجسام الدّقيقة، بل يعطي حيّزًا متعاظمًا: (ضيقًا واتساعًا)، ويضم أعدادًا من الأنواع من الجسيمات التي تتكوّن وتتّحد، وتتفاعل، وتختفي في محيط لا يعرف الهدوء أو السّكون؛ فطاقة الفراغ تملأ الكون وهي التي لو لم تكن لانهار الكون.

والفراغ لا يعدّ عدمًا كما يظنَّه بعض الفيزيائيين، بل وجودًا في ذاته، أي: لو لم يكن وجودًا، لكانت الأشياء جميعها كتلة واحدة، تجمّدًا أو تصخّرًا؛ إذ لا مجال للحركة والمكان والزّمان، وهذا يعني: اللاوجود.

إنَّ علاقة الفراغ بالحركة مثل علاقة الانحدار بالمتحرك على سطحه، فكلّما زاد الانحدار زاد المتحرّك تسارعًا في تمدّده فهكذا هو الفراغ يجذب المتحركات إليه جذبًا.

والفراغ مع أنَّه من مكوّنات الكون، فإنَّ الكون وإن عظم لا يكون إلّا محاطًا بالفراغ، وإلّا كيف يمكن أن يكون كونًا متسارعًا في التمدّد ولا فراغ يسمح له بذلك؟

وهذا الأمر يدلّ على وجود أكوان محاطة بالفراغ، مثلما تحاط به النّجوم والكواكب داخل إطار الكون الذي نحن جزء منه، وإلّا هل يمكن للكون أن يكون كونًا محصورًا في وسطٍ صخري، أو محيطٍ متجمّد؟ {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[120]. تدلّ هذه الآية على الخلق الأوّل للسّماوات والأرض (الأكوان) التي كانت وكأنَّها وحدة واحدة (رَتْقًا)؛ حيث لا انفصال، ثمّ فُصلت (فَفَتَقْنَاهُمَا) بالفراغ الذي أحاط كلًّا منها كما

[120] الأنبياء: 30.

أحاط كلّ شيء فيها، حتى أصبحت سماوات وأراضين (أكوان) مفتوقة تسبح في الفراغ، دون تماس ولا احتكاك ولا تصادم كلّ في فلكه يسبح، فالسّماوات بعد أن كانت ملتحمة وكأنَّها سماء واحدة، والأراضين ملتحمة وكأنَّها أرض واحدة أصبحت بالفراغ أكوانًا منفصلة، أي: فُتقت السّماء والأرض، ثمّ فتقت السّماء سماوات، وفتقت الأرض أراضين.

ولذلك فالفراغ دراية يعد:

. حيّز وجود.

. حيويّة حركة.

. مجال امتداد.

. مكان قابل للانشغال.

ولكن إذا أخذنا بالقول الفيزيائي: إنَّ الكون نتاج الانفجار العظيم، فأيّ كون هو نتاج ذلك؟ هل هو الكون الأوّل المرتق سماوات وأراضين؟ أم إنَّه الانفجار الذي نتج عن انفتاق السّماوات والأرضين (الأكوان)؟

ولذلك فنحن نقرّ بانفجار كوننا مقذوفًا كغيره من الأكوان لحظة الانفتاق العظيم؛ ذلك لأنَّ الأكوان لحظة الانفتاق العظيم دُفعت بالقوَّة الطاردة تجاه الجاذبات (الفراغات) الخاصّة بكلّ كونٍ، حتّى لا يتجاوز كون منها حيّزه الفراغي المهيَّأ له، ولأنَّه انفتاق الأكوان فلا شكّ أنَّه عظيم.

ومن هنا تطفو الأكوان في الفراغ مثل الماء بالنّسبة للسّفن التي تطفو دون غرق، وفقًا لقانون الطفو: (إذا طفا جسم واستقر فوق سطح سائل فإنَّ

قوَّة دفع السّائل على الجزء المغمور من الجسم تعادل وزن الجسم الطافي كلّه)، وهكذا هو الفراغ يحمل الأكوان طفوًا، وهذه لا تكون إلَّا وفق مشيئة شيئت له أن يكون عليها فكان.

إذن: بالانفتاق العظيم أصبح الفراغ بين الأكوان طرائق؛ حيث لا تماس لهيئة أو كيان كوني: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[121]، الطرائق طبقات أكوان فوق بعضها البعض، وبين كلّ طابق وآخر فراغ محيط.

ومع أنَّ الفراغ فاصل بين الأكوان، فإنَّه المهيأ لكلّ كون، وإلّا هل يمكن أن يحلّ كونٌ محلّه لو لم يكن مهيَّأ له فراغ؟ أي: لو لم توجد للأكوان أماكن فارغة لتحلّ فيها وتطفو فهل يمكن أن تكون الأكوان كما هي عليه أكوانًا؟

ولأنَّه الانفتاق العظيم، فهل كان هذا الانفتاق من لا شيء؟ أم إنَّه كان من شيء؟ أم إنَّه من غير ذلك كلّه؟

الكون لو لم يكن شيئًا مخلوقًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه المخلوق وإنْ اُختُلِفَ على خَلقه من لاشيء أو خَلقه من شيء؛ فهو الكون المخلوق. لكن الاختلاف أصبح بين من يره مخلوقًا من لا شيء، بأسباب انفجار عظيم لا يمكن إثباته، ومن يره كونًا من أكوان الانفتاق العظيم، استنادًا على الوحي الموحى، الذي أُنزل حُجّة على مَن شاء الله أن يدريه بمعجزات لا يعلمها إلَّا هو تعالى؛ وكان ذلك كلُّه قبل أن يأتي مجتهد ويجتهد في علم الفيزياء والفلك، ليقول: خُلق الكون من لاشيء.

---

[121] المؤمنون 17.

إنَّ ذلك الانفتاق العظيم ما كان له أن يكون لو لم يكن الفراغ طاقة فاصلة بين تلك (المرتقات) سماوات وأراضين؛ ولهذا فكوننا هو كون من الانفتاق العظيم، ومن ورائه خالق، وليس بكونٍ من لاشيء.

إذن: الفراغ الذي به أصبحنا ندري ونعلم ونعرف هو قوَّة إحاطة وجذب، تحفّز المتحرك على الحركة والتسارع، وهو حيّز لحركة الأجسام المشاهدة والملاحظة، فلو لم يكن الفراغ سابقًا على الأشياء، ما كانت أشياءً، فالأرض افتراضًا: لو أخرجت من الحيّز الذي تشغله، ألا يكون مكانها مصدر جذب لأشياء أخرى تشغله؟ وفي المقابل: لو كان مكان الأرض مشغولًا بشيء آخر؛ فهل يمكن أن تكون الأرض إن لم يكن لها مكان تشغله؟

فالحيّز مكان للامتداد والحركة المتناهية؛ فلو لم يكن المكان قابلًا للانشغال أمام الشيء المتحرك تجاهه ما كانت الحركة، وإلّا هل يُعتقد أن تكون الحركة لو لم تكن الفراغات محيطة بكلّ متحرك؟ وهل يمكن أن نمشي على أقدامنا لو خليت الدّنيا من الفراغات غير المشاهدة؟ وهل يمكن أن تطير الطّائرة لو كانت السّماء عبارة عن أجسام متّصلة؟ وهل يمكن أن تكون للمدفع فوهة لو لم يكن للفراغ وجود؟

وعليه: فكلَّما زادت كثافة الأجسام وقلت الفراغات قلت الحركة، وكلَّما زادت الفراغات كانت الحركة أكثر تيسيرًا.

وقد يتساءل البعض: هل للفراغ مكان، أم إنَّه مكان بذاته؟

إذا كان الفراغ مكوّنًا طبيعيًّا فلا بدّ أن يكون له مكان، وإذا كان مكونًا ميتافيزيقيًّا؛ فهو المجرّد من المكان، وبالتّالي فلا مشاهد، ولكن بما أنَّنا

نتحدث عن الفراغ فإنَّنا لا شكّ نتحدث عن وجودٍ حتى وإن وصف باللاشيء، وبما أنَّه موجود بيننا، إذن: فبالضّرورة يشغل حيّزًا، وبما أنَّه فراغ، إذن: فهو المحصور بين محيطٍ متماسكٍ ويشغل حيّزًا، حتى وإن كان متناهيًا في الصّغر؛ ولذلك فالفراغ يحيط بكلّ شيء، كما أنَّه يشغلها حيّزات.

والفراغ يمكن أن يكون تامًّا غير مناسب للحياة، ويمكن أن يكون خلاء طبيعيا ممهدا للحركة والتمدّد، فالفراغ غير التّام ميسّر للحركة، أمّا الفراغ التّام فمعسّر لها.

ولذلك فالفراغ المكاني يعدّ حيزًا تشغله الأجسام ويمكن ملاحظته؛ ولذا فالمكان الفراغي سابق على الشيء الذي يمكن أن يشغله، كأسبقيّة القالب على ما يُقولب فيه من مادّة؛ ولذلك فالفراغ المكاني إطار عام لاحتواء الشيء واللاشيء، ومع أنَّ الأرض مكان لنا، فإنَّه لو لم يكن لها مكان فارغ لتكون فيه ما كانت.

ومن ثمّ فمكان الكواكب والنّجوم والأشياء دائمًا يساوي أحجامها، ولا يمكن أن تشغلها إلّا بعد طرد فراغاتها والإحلال محلها، ولا يبقى الفراغ إلّا محيطًا عظيمًا يحفظها في أفلاكها وأماكنها، ويتيح لها إمكانيَّة الحركة.

ولكن هل محيط الأشياء يلاحظ، أم يشاهد؟

الأشياء الماديّة تشاهد؛ لأنَّها تشغل الحيزات بالمادّة، ولكن على الرَّغم من أنَّها في حالة حركة فحركتها لا تشاهد؛ ولذلك فنحن لا يمكننا رؤية الحركة، ولكننا نرى المتحرك، فالحركة تلاحظ، والمتحرك يشاهد، ومن ثمّ

فمحيط الأرض لا يمكن مشاهدته لأنَّه مجال التمدّد وفسحة الحركة، أمَّا المتحرك كوكبًا أو نجمًا، أو أيّ شيء فيشاهد.

فالمتحرك يشاهد لأنَّه شيء: (شكلًا وصورةً)، أمَّا الحركة فلا شيء؛ حيث (لا شكل ولا صورة)؛ لذلك فكل الأشكال الهندسية لا يمكن أن تكوِّن أشكالًا إلَّا ولها فراغ مكاني، ومن ثمّ فمحيط الأرض ليس مادّة مشاهدة، ولكنّه يلاحظ.

الفراغ حاضنة الأشياء:

الفراغ سِعة مهيأة لاستيعاب الأشياء كبرت أم صغرت، يحتوي كلّ شيء حتّى وإن تمّ احتواء شيء منه، إنَّه حاضنة الأكوان؛ إذ لا شيء يكون إلّا في فراغ، ومن ثمّ فالقاعدة المنطقيَّة:

(الفراغ حاضنة الأشياء).

والحاضنة هي المهيَّأة للوجود الحي؛ لتمدّه بما هو في حاجة ماسّة إليه من أجل البقاء، وكلّ شيء يمكن أن يحاط، إلّا الفراغ مهما أحطنا منه من شيء، فسيظل محيطًا لكلّ شيء يحاط بإحاطة المحيط العظيم.

والكون الذي يشكِّل الفراغ 90% من كتلته: (مجمل الطّاقة المظلمة والمادّة المظلم[122]، فهو محاط بفراغ يفصله عن الأكوان الأخرى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[123].

---

[122] https://hyperstage.net/wp-content/uploads/2014/08/a-universe-from-nothing.png

[123] الطلاق: 12.

فالفراغ هيئة مكانيَّة حاضنة لكلّ شيء في الكون، وفي الوقت ذاته حاضنة الكون بأسره، وإلّا هل يمكن أن يكون الكون متسارعًا في تمدّده لو لم يكن الفراغ بساطه ومحيطه؟ وكيف يمكن للكون أن يكون كونًا مع أكوانٍ أخرى لو لم يكن الفراغ حاضنة لكلّ كونٍ؟

ولأنَّ الفراغ هيئة بلا صورة فهو المتهيأ لاحتضان الأشياء، والممهّد لحركتها، ومع أنَّه الفراغ فإنَّه مليء بالأجسام الدّقيقة غير المعسّرة للحركة؛ ولذلك ففراغ الكون لا يعدّ فارغًا.

وكلّما كانت نسبة الفراغ واسعة طال البقاء، وكلّما ضاقت هذه النّسبة اقتربت النّهاية، فالكون الذي يملأه الفراغ بنسبة 90% لو امتلأت هذه النّسبة مادّة صلبة، فهل يمكن للحياة أن تجد مكانًا؟

لا شكّ إذا امتلأ الكون فراغًا حتى أصبح لا فراغًا سيحدث الانفجار، وتصبح المادّة المنفجرة أشياء متناثرة في كون عظيم.

ولكن لماذا يتمدّد الكون؟

يتمدّد الكون انبساطًا بقوَّة الفراغ الجاذبة، وقوَّة الفراغ الدّافعة، فذلك الانفجار العظيم بأسباب قوَّة الانفتاق دُفع انبساطًا في كلّ الاتجاهات، كما دُفع غيره من الأكوان المنفتقة (سماوات وأراضين)، وفي المقابل الجاذبيَّة كلّما اقترب المتمدّد من مركزها ازداد تسارعًا؛ ولذلك فالقاعدة العلميَّة: (لا تمدّد إلّا في فراغ)، أي: إذا انعدم الفراغ استحال التمدّد.

والقاعدة المنطقيَّة ترى:

كلّ تمدّد في الفراغ.

الانفجار تمدّد.

إذن: الانفجار تمدّد في الفراغ.

ولأنَّه لا انفجار إلّا في الفراغ، إذن: فذلك الانفجار العظيم لو لم يسبقه فراغ ما انفجر كونًا عظيمًا؛ وكذلك حال الانفتاق لا يمكن أن يكون لو لم يتوافر حيّز لتمدّد الأكوان المنفتقة.

فالفراغ حيّز استيعابي تتمدّد الأشياء فيه وتتكاثر، وإن سحبت الأشياء منه لا يتأثر "فلو أزلنا من الكون كلّ ما يمكننا رؤيته من نجوم ومجرات وحشود مجرّية، فالكون لن يتأثر عمليًّا"[124].

ومع ذلك فعلينا أن نميّز بين الفراغ والخلاء؛ فالفراغ حيّز تمدّد الأشياء، والخلاء مكان يفتقر للإعمار أو الامتلاء؛ ولذا يكون الفراغ حيث لا يتواجد الشيء، والخلاء حيث يتواجد الشيء، فعلى ظهر الأرض تشاهد الخلاء، أمَّا الفراغ فيحيطها ويتخلّلها، وهكذا ترى الزجاجة الخالية من السَّائل مملؤة فراغًا.

ولأنَّ الفراغ يمثل الجزء الأعظم من الكون فلا أحد يتساءل: مِمَّ خلق الفراغ؟ ولذلك فسبب وجود الكون هو السّبب في وجود الفراغ، والقاعدة الخلقية تقول:

كلّ مخلوق من ورائه خالق.

---

[124]https://hyperstage.net/wp.content/uploads/2014/08/a-universe-from-nothing.png

الفراغ مخلوق.

إذن: فمن ورائه خالق.

ومع أنَّ الفراغ يحتوي الأكوان فإنَّه يشكّل الجزء الأكبر منها، ومن هنا فالأكوان محمولة بحيويّة الفراغ وكأنَّها بالونات هوائيَّة، وهي لا شيء بالنّسبة للهواء الذي يحوطها.

الكونُ شيئًا عظيمًا:

جاءت تسميّة الكون منزّلة في علم الدّراية، وهي التسمية المستمدّة مِن فعل خلق الكون وتكوينه أمرًا: (كن)، فكان الخلق كونًا واسعًا عظيمًا، ولتبيان ذلك دراية علينا أنْ نعرف التعليل الذي يكمن وراء التساؤلات التالية:

من الذي أمر بانفجار تلك الذّرة التي قالوا عنها أصل خلق الكون، حتى تمكَّن الكون من خلق نفسه من ذلك الانفجار العظيم؟ ووفقًا لقواعد المنطق العقلي، هل خالق الشيء يكون خارج الشيء، أم يكون الشيء نفسه؟

ووفقًا لما يدَّعيهِ أصحاب نظريَّة: (الكون خلق نفسه، ولم يكن من ورائه خالق)، لِمَ لا يسمّونه الخالق بما أنَّه خَلق نفسه، ومن ثم يُحرِّرونه من ذلك المسمى الكوني الذي أطلق عليه نسبة للأمر (كن) فكان، وفقًا للأمر (كن) كونًا؟

والخَلق: مقدرة عظيمة لا يمتلك أمرها إلَّا الخالق، وبها يختص ويتّصف، وبها يَخلق ولا يُخلق (يمتلكها ولا تمتلكه)؛ أنَّها الصّفة التي تسبق المخلوق وتتبع الخالق.

والتساؤل:

أيّهما أسبق وجودًا، (الخلق أم الكون)؟ فإن كان الكون كما يقول بعض علماء الفيزياء هو السّابق على الخَلق (خُلق الكون من لاشيء، ولا خالق له) فتساؤلنا: من أين استمدّ الكون صفة الخلق التي تملؤه: (شيئًا ولا شيئًا)؟

لقد اتفق الفيزيائيّون على أنَّ الكون قبل أن يكون كونًا، كان نقطة ذريَّة، ثمّ انفجرت تلك النقطة المتناهية في الصّغر؛ فأصبح الكون من بعدها يتّسع بـ(الشيء واللاشيء)، ويتمدّد متسارعًا في كلّ الاتجاهات، وهو مملوء طاقة وحيويَّة ومجرَّات ونجومًا.

ولكن بعض الفيزيائيين أصدر حكمًا مفاده: (إنَّ الكون خُلق من لاشيء)، ومن ثمّ يقولون: (لا خالق للكون)، وهذا الحكم يدفعنا لطرح تساؤلنا:

إذا سلّمنا افتراضًا أنَّ الكون خَلق نفسه من لا شيء، إذن: فمن الذي خلق تلك النقطة (الذرة) سبب وجود الكون؟ أم أنَّ تلك النقطة الذّريَّة هي الأخرى قد خَلقت نفسها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل تمكَّن هؤلاء الفيزيائيّون علميًّا من معرفة تلك النقطة التي وصفوها بالذّرة قبل أن تنفجر؟ وهل هم متيقّنون علميًّا أنَّ تلك الذّرة لا توجد ذرات أخرى إلى جانبها؟ وإذا قبل البعض بخلق الكون لنفسه، ولا خالق له، إذن: فمن أين استمدّ الكون صفة الخلق التي يتحدّثون عنها؟ وهل حكمهم نتيجة إثبات حقيقة علميَّة، أم إنَّه نتيجة تفسير لما تمكّنوا من اكتشافه، وكأنَّه لا اكتشاف من بعده؟

وإذا أجزنا افتراضًا أنَّ الكون قد خَلق نفسه من لاشيء؛ فلا بدّ من تعميم هذه الصّفة على جميع مكونات الكون وأجزائه الدّقيقة بما فيها نحن بنو آدم؛ ذلك لأنَّ الصّفات تنقل وراثيًّا (سلالات، وأطوارًا، وأجيالًا) إلى النّهاية.

فإذا اعتمدنا هذا الحُكم فلا شكّ أنّنا قادرون على خلق أنفسنا، وفقًا لصفة الخلق التي يتّصف بها جدّنا الأوّل (الكون)، الذي قالوا عنه: قد خلق نفسه من لاشيء، ولأنَّنا نعرف أنَّ حقيقة خلقنا ليست بأيدينا، إذن: فلا يمكن أن يكون الكون الذي نحن من ترابه خالقًا لنفسه.

وإذا سلمنا بنظريَّة الانفجار العظيم هي كما هي، فهل هناك من مشاهد لذلك الانفجار ساعة انفجاره، حتى يصفه لنا بهذه الصّفة؟ أم إنَّه قراءة أبهرت القرّاء من الفيزيائيين بما لم يكونوا له متوقَّعين؟

وإذا تمسّك ذلك البعض من الفيزيائيين بأنَّ الكون قد خَلق نفسه من لاشيء؛ فهل يدلّ هذا الأمر على أنّ صفة الخلق الكوني تحدث مرّة واحدة ثمّ تنقطع؟ فإذا قبلوا بذلك فكيف لهم بفرض الإثبات العلمي: (الصّفة الطبيعيّة جينات تورّث)؟

ولأنَّ الخلق صفة لخالقٍ، فالخالق لا بدَّ أن يكون أعظم من المخلوق؛ ولهذا فالمخلوق المدرك ينبهر بما هو عظيم كلّما اكتشفه، وبخاصّة إنْ لم يكن متوقَّعًا.

ولذلك فعلماء الفيزياء انبهروا بما اكتشفوا كونًا (طاقة، وحيويَّة، ومجرّات، ونجومًا، وكواكبًا، وتمدّدًا)، ممّا دعاهم إلى وصف ذلك المكتشف المبهر بالكون الخالق لنفسه من لاشيء.

ومع أنَّ بعض علماء الفيزياء يرى: (أنَّ الكون خُلق من لا شيء، ولا إله له)، فإنَّ بعضًا آخر يرى: (أنّ وراء كلّ مخلوق خالق، ولا شيء خالق لنفسه)، ثمّ بعضًا ثالثًا يرى: (أنّ الكون خُلق من عدم)، أمّا البعض الرّابع فيرى أنَّ هناك: (أكوانًا أخرى خُلقت إلى جانب الكون الذي نبحث في شأنه).

ولأنَّ علماء الفيزياء يفترضون وهم يفسّرون معلوماتهم بوجود أكثر من كون، فهل هذه الأكوان جميعها قد خَلقت نفسها من لاشيء، أم إنَّ وراء كلّ كونٍ خالق؟ أم إنَّ للأكوان خالقًا واحدًا؟

ولأنَّ القاعدة المنطقيَّة تقول: (الخالق لا مثيل له)؛ ذلك لأنَّه الخالق، إذن: فالإقرار بوجود أكثر من كون، وكلّ كون خالق لنفسه من لاشيء يعدّ إقرارًا بوجود أكثر من خالق، وهذه الحجّة تبطل مقولة: (الكون خلق نفسه)؛ لأنَّه لو خلق نفسه، لما كان له مثيل (كون آخر).

ولأنَّ الدلائل تشير إلى وجود أكوان أخرى فكيف لنا باختراقها ونحن حتى الآن لا نستطيع اختراق حدود كوننا المتسارع في التمدّد؟

وإذا أجزنا ذلك فهل هذه الأكوان هي من نتاج ذلك الانفجار العظيم (الانبهار) أم إنَّ لكلِّ كونٍ انفجاره؟

ولأنَّ طبيعة الانفجار مدمّرة للأشياء فلماذا وُصف الكون بهذه الصّفة التدميريَّة التي لا تؤدّي إلى الخلق والبناء؟ وكيف يمكن لنا التسليم بهذه الصّفة التدميريَّة، وفي الوقت ذاته نسلّم بأنَّ الكون خلق نفسه من لاشيء ولا خالق له؟

وإذا سلّمنا بأنَّ وراء هذا الكون تلك النّقطة الذّرية فينبغي لنا التسليم بأنَّه لو لم تكن تلك الذّرة المتناهية في الصّغير ما كان الكون، وهذه الحجّة تبطل القول: (إنّ الكون خُلق من لاشيء) وتثبت أنَّ الذي خلق تلك الذّرة المتناهية في الصّغر هو الذي خلقها على الانفجار الذي أخرج الكون منها، وبالتالي تبطل مقولة: (خلق الكون من غير خالق).

وإذا كان الكون قد خُلق من تلك الذّرة المتناهية في الصّغير، أو أنَّه خُلق من انفجارها فالتساؤل: ومن الذي خلق تلك الذرة؟ ومن الذي جعلها على الانفجار؟ ومن الذي زمَّنها (جعل لها زمن لا بدّ وأن تنفجر عنده؟).

ومن ثمَّ فإنْ لم نتحصّل على نتيجة ذات حُجّة، يصبح من الصّعب علينا التسليم بما سلّم به بعض الفيزيائيين: (أنَّ الكون قد خَلق نفسه من لاشيء). ومن أجل البحث، فإذا سلّمنا بالانفجار الكوني فهل ذلك الانفجار حدث في مكان وزمان، أم أنَّه حدث في غير مكانٍ ولا زمانٍ؟ وإن حدث في مكان وزمان، يظل الزّمان والمكان سابقين على وجوده، وإن قال قائل: إنَّه حدث في غير مكان ولا زمان فالتساؤل: هل يمكن في غير مكانٍ وزمان أن يكون للانفجار صفة التمدّد والانتشار؟

وإذا قبلنا بلحظة الانفجار الكوني (الانبهار العظيم)؛ فهل حدث هذا الانفجار في مكان وزمان كما سبق وأن تساءلنا؟ أم إنَّ المكان والزّمان من مواليده؟ فإنْ تمّ الاستدلال بهما على ذلك الانفجار العظيم يصبح استيعابهما لتلك الذّرة الصّغيرة متجاوزا لأيّ نقاش، ولكن إن لم يتمّ الاستدلال بهما، يصبح الانفجار العظيم ساعة الولادة.

ولأنَّ أمر الخلق عظيم فهناك من يؤمن: (أنَّ وراء الخلق خالقًا)، وفي المقابل هناك من يكفر بذلك، ويقول: (الكون خُلق من لاشيء)، وبين هذا وذاك هناك من يرى أنّ الكون: (خُلق من عدم)، والله قال: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[125].

فها نحن في مجادلة تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُمكِّن من معرفة الكون، دون تعصّب بغير بيّنة؛ ممّا يجعل البعض يطلب تحديدًا لمفهوم العدم مع إظهار الحجّة المرسّخة لخلق الكون منه.

فالعدم مع أنَّه أثر يثبت وجود شيء، فإنَّنا إن سلّمنا بفرضيَّة خلق الكون من العدم فقد سلّمنا بوجود شيء سابق على وجود الكون، ومن ثمَّ يصبح الكون مخلوقًا من ذلك الأثر المتناهي انعدامًا، وإذا سلّمنا به أيضًا فلا يمكن التسليم بأنَّ: (الكون خُلق من لاشيء)؛ فكيف لنا بقبول ذلك وبعض الفيزيائيين يفترض خلق الكون من العدم؟

ومع أنَّ العلماء والبحاث يحتكمون بالأدلة والحُجج الموضوعيَّة، فإنَّ في بعض الأحيان تتدخّل الأحكام الشخصيَّة مع بعض النتائج العلميَّة، ومن

---

[125] الكهف: 54.

هنا ينبغي لنا التمييز بين التحليل العلمي الممكّن من نتائج موضوعيَّة، وتفسير النتائج الذي في كثير من الأحيان يتأثّر بوجهات النظر الشخصيَّة، فالتفسير لا تنقطع صلته عن رؤية المفسّر (وهنا تكمن العلّة)، أمَّا النتائج فمؤسّسة على حقائق وشواهد.

ولأنَّ العلماء يدركون حقيقة مفادها: (لا تحدث الأشياء إلّا بأسباب)؛ فالأسباب لا يمكن أن تكون منفصلة عنها لتدفعها تجاه تحقيق الأهداف.

وبناء على هذه القاعدة العلميَّة: هل عرف أولئك العلماء الفيزيائيَّون الأسباب التي دعت تلك الذّرة إلى الانفجار؛ لتكون من بعد انفجارها كونًا خالقًا لنفسه؟ وكيف لهم بهذا الحكم، وهم لا يعلمون الأسباب التي كانت من وراء خلقه؟ أي: هل يمكن أن تُحلّ مشكلة علميَّة، أو اجتماعيَّة، أو إنسانيَّة إذا لم يتمّ التعرّف على أسباب وجودها أو ظهورها؟

وهل يمكن لنا الأخذ بهذا الحكم (الكون خُلق من لاشيء) ونحن لم نعرف الأسباب التي كانت من وراء خلقه؟

أي: هل يُمكن لأيِّ عالمٍ معرفةَ مشكلةٍ علميَّةٍ، وهو يجهل معرفة أسباب وجودها؟

كلّ هذه التساؤلات تحمل إجاباتها في أحشائها، فالذي خلق تلك الذّرة التي انفجرت كونًا وحده يعلم الأسباب.

إذن: ذلك المنفجر لو لم يكون من وراء انفجاره أسبابًا ما انفجر، ولذا فالعقل على الرَّغم من الحيرة التي تلازمه بداية البحث العلمي، فإنَّه لا يقبل التسليم بحدوث أيّ شيء ما لم يكن المشيء شاء له ذلك.

وعليه: فإنَّ المنطق العلمي يقول: إذا سلّمت بوجود شيء قابل للانفجار فلا بدّ أن تسلّم بوجود علل انفجاره وإن لم تعلمها.

وفي كلتا الحالتين فإنْ أنكرت تلك العلل فإنَّ إنكارك لها لا يلغي وجودها، وإن سلّمت بها فإنّك قد سلّمت: (أنَّ وراء كلّ علّه معلولًا، ووراء كلّ مخلوق خالقًا).

والمنطق العلمي يقول: (في الوقت الذي تعرف فيه شيئًا منفجرًا، تعرف فيه شيئًا آخر قد انتهى) فوجود الكون بأسباب الانفجار كان نهاية لذلك المنفجر، فعلى سبيل المثال: القنبلة المنفجرة أوَّل ما تنفجر تُنهي وجودها، ثمّ تؤثّر في محيطها تأثير مباشرًا؛ ولذلك فأيّ منفجر ما لم يكن له مكان للانفجار فلا يمكن له أن ينفجر، وهذه الحجّة تثبت وجود مكان لتلك الذّرة التي انفجرت، ولأنَّ تلك الذّرة قد انفجرت قبل أن يُخلق الكون، إذن: فهي المزمّنة على الانفجار، ولأنَّها مزمّنة للانفجار، إذن: فالزّمن سابق على وجود الكون. ومن ثمّ فمَن الذي خلقها؟ ومَن الذي جعلها على الزّمن (لحظة الانفجار)؟

إنَّ بعض الفيزيائيين يعترف بحدوث الانفجار في الفراغ، وفي المقابل بعضهم الآخر يرى أنَّ الانفجار كان بالفراغ، ولم يكن فيه، وفي كلتا الحالتين:

حدث الانفجار، ولأنَه حدث فلا بدّ من وجود حيّز مهيئ لانفجاره؛ ليسمح له بالتمدّد.

وإذا أجزنا ذلك فقد اعترفنا بأسبقيّة الزّمن الذي من دونه لا يمكن أن يكون الانفجار، ولكن وإن توافر المكان والزّمان فلا انفجار إلّا بسبب، ولسببٍ.

ولأنَّ بعض الفيزيائيين يقرّ بخلق الكون من لاشيء؛ فأنَّهم يقرّون بنهايته لا محالة، ومن هنا أتساءل:

هل بقولهم هذا يقرّون أنَّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء بغاية إنهائها، وكأنَّه لا شيء من وراء خلقه إلّا أن ينفجر ثانية؟

فإذا أقرّوا ذلك فقد أقرّوا بعبثية خلق الكون: (كون بلا أسباب، ولا طموح، ولا غاية)، ولأنَّ بعض العلماء أقرّ بالكون خُلق من لاشيء فهم بقرارهم هذا اعترفوا بأنَّه مخلوق (كونه كما قالوا خلق نفسه)، وبما أنَّه مخلوق، فما هو الغرض من خلقه؟ نعتقد أنَّه لا أحد يستطيع الادعاء بمعرفة غرض الكون، وبخاصّة أنَّ الغرض يسبقه هدفٌ وتلحقه غاية، وهذه لا يعرفها إلّا عليم، ولأنَّ الكون بلا ذاكرة، فكيف له بذلك؟

وإذا سلّم البعض بخلق الكون من لاشيء، ولا خالق له فهل خَلْقُ الكون مؤسّس على قوانين؟ أم إنَّه لا قوانين تحكمه؟

إذا قبلوا بخلقه على قوانين، فقد قبلوا بأسبقيَّة القوانين عليه، وإذا قبلوا بذلك فلن يقبلوا بخلق القوانين لنفسها؛ وذلك لمعرفتهم أنَّ القوانين ليست

مادّة، بل هي ضوابط للتوازن والاعتدال والانتظام والحركة والسّكون، فهي لا تكون إلّا من مدبّر أمر الخلق، والقاعدة تقول:

كلّ الخلائق خُلقت على قانون.

الكون من الخلائق.

إذا الكون خُلق على قانون.

ولأنَّ الكون خُلق على قانون، إذن: فمن الذي خَلق القانون الذي تأسّس خلق الكون عليه؟

وإذا رجعنا إلى قول عالم الفيزياء روبرت جاسترو: "إنَّ البذرة التي تَشكَّل عنها كلّ ما في الكون كانت قد زُرعت في تلك اللحظة الأولى، وكلّ مخلوق حي في الكون جاء للوجود نتيجة الأحداث التي تمّ تعيينها في لحظة الانفجار الكوني"[126]، وبالعودة إلى قول العالم جاسترو، نعرف أنَّ تلك البذرة قد زُرعت في تلك اللحظة، ولكن بما أنَّه قد اعترف بزراعة تلك البذرة، إذن: فقد اعترف بوجود البذرة قبل زراعتها، ومن هنا أتساءل:

. من الذي أوجد البذرة، ومن أين أوجدها؟

. من الذي زرعها، وأين زرعها، ومتى زرعت؟

. من الذي شاهدها بذرة قبل انفجارها؛ ليصفها لنا يقينًا بأنَّها بذرة؟

. ومن الذي يعلم أو يدري الأسرار العظيمة لفكّ اللغز؟

---

[126] Dinesh D'Souza, What's So Great about Christianity, (Regnery Publishing, Inc, 2007) p118.

أقول: هو السّابق على كلّ قول: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[127]، والبديع هو السّابق على كلّ سابق، وهو الذي يعلم أسرار إبداعه، فيعلم ما لا نعلم: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[128].

إنَّ هذا القول الذي اقتبسناه جاء داعمًا لتساؤلاتنا؛ لأنَّه القول السّابق على ما جاء به الفيزيائيّون من أقوال واستنتاجات؛ وبذلك لو قرأ الفيزيائيّون قول الله تعالى لعرفوا عمّ يتسألون: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}[129]، كلّ هذه الآيات نزلت قبل بلوغ علم الفيزياء معرفة نظريَّة الانفجار العظيم التي أبهرت الفيزيائيين بعظمة خلق الكون، حتى اعتقدوا أنَّ الكون خُلق من لاشيء، فهم لو اضطلعوا على قول الله، لعرفوا أنّ الكون مخلوق، وأنَّ وراء كلّ مخلوق خالقًا.

وحتّى لا يأخذنا تحيّز بلا حُجّة، أتساءل:

أيّهما أسبق: التوراة والإنجيل والقرآن، أم نظريات النسبيَّة والجاذبيَّة والانفجار العظيم؟

فمن حيث الزّمن، الفارق كبير، ومن حيث الحُجج المنزّل أعظم، إذن: فلماذا لا يقرأ الفيزيائيّون المنزّل، ثم يبحثون ويقارنون بموضوعيَّة ويكتبون ما يتوصّلون إليه من نتائج علميَّة، والتي لا شكّ أنَّها ستكون نتائج مبهرة عند

---

[127] البقرة: 117.

[128] الحج: 70.

[129] النبأ: 1-12.

اكتشافها: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}[130]، السير هنا جاء بغاية الاستكشاف وزيادة المعرفة، أي: ابحثوا عمّا أعلمتكم به من غيب، حتى تعرفوا الأسرار في الأرض والسّماء، وتكتشفوا قوانينها، ومن ثمّ تتيقّنوا الحقّ: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّه الْحَقُّ}[131].

ولذلك نزل قوله: (انظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، بدلالة التمعّن فيما تنظرون إليه من عجائب، والنّظر إلى العجائب يستوجب التفكير في الكيفيَّة التي بها خُلقت العجائب: {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[132]، أي: يا بني آدم، لا تستوقفوا عقولكم عند المشاهد، بل مدّوا نظركم إلى الكيفيَّة التي عليها وبها خلقت الأشياء، فالنّظر إلى الإبل والسّماء والجبال والأرض ضرورة، لكن الأعظم من ذلك النّظر إلى الكيفيَّة التي بها خُلقت الإبل، والكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء، والكيفيَّة التي بها نصبت الجبال، وسُطحت الأرض.

وهذه الآيات دعوة للتأمّل والنظر (أفلا ينظرون)، فلو نظر بنو آدم لعرفوا، ولو عرفوا لتدبّروا، ولأنَّهم لم ينظروا فلن يتذكّروا ما يعظهم، ولن يتدبّروا ما يفيد أمرهم، ولن يفكّروا فيما يجب، وهذه من الغرائب والعجائب.

---

[130] العنكبوت: 20.

[131] الحج: 54.

[132] الغاشية: 17-18.

الدِّراية الكونيَّة خلقًا:

الدِّراية الكونيّة خلقًا لا تكون إلَّا بعلمٍ من الخالق، وكل الأكوان خُلقت بالأمر (كن) فكانت سبعة طباقًا نحن ندري بها وجودًا عامًّا (دراية قرآنيَّة)، ولا ندري بخصوصيّة منها إلَّا قليلٌ عن الكون الذي نحن فيه خُلقنا، وهو الكون الذي خُلق متسارع في تمدّده على قوَّة الثنائيَّة الموجبة والسَّالبة، فكان تمدّده المتسارع معتدلًا في كلّ الاتجاهات على الرَّغم من القوَّة والتضاد.

ولأنَّ الكون خُلق على الثنائيَّة، إذن: فقد خُلق للتكاثر المشاهد والملاحظ، ولكن كيف يُخلق الكون أحاديًّا والثنائية تملأ أحشاءه؟

وفقًا للمنطق السّلالي، هذه الزّوجية تشير إلى عدم خلقه وحيدًا، ومن هنا، بدأ علماء الفيزياء يطرحون فروضهم وتساؤلاتهم العلميَّة لإثبات ذلك أو نفيه.

وعلى ضوء تلك الفروض والتساؤلات عثر مجموعة من علماء الفيزياء الأمريكان على تفسير مناسب لتلك النقطة المعتمة المثيرة للدّهشة، فحسب هؤلاء العلماء أنَّ هذه البقعة عبارة عن بصمة كون آخر تضغط على جدار عالمنا، ثمّ استنتجوا وجود الأكوان المتعدّدة والمختلفة والمتوازية، ووفقًا لنظريَّة الأكوان المتعدّدة، فكوننا يشبه فقاعة بجانب أكوان موازية شبيهة.

وعلى نقيض نظريَّة العوالم المتعدّدة، نظريَّة الأوتار التي تفترض أنَّ هذه الأكوان يمكنها أن تكون على اتصال مع بعضها البعض، وكذلك النظريَّة

تقول: إنَّ الجاذبيَّة يمكنها التدفق بين هذه الأكوان المتوازية، وحينما تتفاعل هذه الأكوان، فإنَّه ينشأ انفجار كبير مثل الذي خلق كوننا[133].

هذه المعطيات البحثيَّة ترسّخ تلك الحقائق التي أُنزلت قرآنا، ونحن المسلمون بها ندري: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[134]. فلو لم يقل الله: (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) لاتّهم المؤمنون هؤلاء الفيزيائيين بالكفر أو الشّرك، ولأنَّ قول الله سابق لاكتشافهم فلا استغراب لما جاءوا به من اكتشاف، أي: لو لم تكن السّماوات (الأكوان) مخلوقة لما اكتشفوها، وهكذا دائمًا بما أنَّنا نكتشف فإنّنا نعترف بأسبقيَّة الخلق المكتشف على اكتشافه.

فسبع سماوات طباقًا، تعني: سبعة أكوان فوق بعضها البعض: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[135]، وسبعة أكوان (في كلّ كون أرض وسماء) تملأها النّجوم والمجرّات والطّاقة. أكوان في دوائر منبسطة مثل انبساط كوننا الذي إن تماس معها حدث الانفجار وتكون النّهاية: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[136].

الدِّراية الوجوديَّة عقلًا:

الدِّراية الوجوديَّة عقلًا لا تكون أوَّلًا: إلَّا بعد علم من عالم الغيب والشهادة، وثانيًا: بجهود بحثيّة تستمد المعلومات من مصادرها؛ ولذا فمع أنَّ

---

[133] Michio kaku, parallel Worlds: A Journey Through Creation, Higher Dimensions, and the Future of the cosmos, Double Day ,2004

[134] نوح: 15.

[135] الطلاق: 12.

[136] الروم: 11.

دلالة الوجود وماهيته واحدة، فإنَّ مقاصد الباحثين في ميادينه تختلف باختلاف الثقافات والمعارف، فما يره البعض وجودًا قد لا يره البعض كذلك (فلاسفة وعلماء)، وبين هذا وذاك فالوجود لا يكون حيث لا وجود، فهو يشغل حيّزًا وإن كان متناه في الصّغر: (ماديًّا أو معنويًّا).

ومع أنَّ الفيلسوف سارتر قد ميّز بين الوجود وأسبقيَّته، والماهيَّة وألحقيتها، فإنَّ رؤيته الفكريّة ربطت الوجود بالفاعليَّة والحرّيَّة، وكأنَّ من لا يدركهما لا وجود له.

وهنا أتساءل:

هل يحقّ لنا ألا نحسب وجودًا للكون المرتق الذي وجدت منه الأكوان المفتقة والأرض التي دَحِّيت منه وما فيها وما عليها من أنهار وجبال وكائنات كونها لا تمتلك مدركات الحرّيَّة؟

وبما أنَّ الوجود يشغل حيّزًا، إذن: فلا إمكانيَّة لإنكار ما يشاهد أو يلاحظ وجودًا: (وجود حياة، أو وجود أثر) فالوجود يحتوي على الدّلالة كما يحتوي على الكينونة (الماهيَّة)؛ حيث لا ماهية إلّا لوجودٍ، أي: لو لم يكن الوجود بفعل فاعلٍ ما كانت الماهية بإرادة المفعول المخيّر في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

فالوجود لا يكون إلّا عن قوَّة وإرادة فعّالة، ممّا يجعل مشيئة الوجود بيد الموجد بالقوَّة، والقوَّة الفعّالة يمكن أن تكون مطلقة، ويمكن أن تكون نسبية؛ ولذا فالخالق يخلق بالقوَّة المطلقة، والصّانع يصنع بالقوَّة النسبيّة، ومن هنا فالإنسان يمتلك القوَّة التي تستوجب حُسن تصرّف فإن كان التصرّف عن

دراية وإرادة حرّة، كان الإنسان مسئولًا عن تصرفاته سلبًا وإيجابًا، ومن ثمّ فالتسيير مطلقٌ بالقوّة، والتخيير نسبيٌّ بالإرادة وفقًا للمقدرة في دائرة الممكن.

ولذا فالوجود شيء لا يُخفى وإن قصر البعض عن إدراكه وهو عظيم جدًا في تناهيهِ كبرًا وصغرًا وتوازنًا، وسيظل الوجود نكرة إلى أن يُدرك ويعرّف صفة وخاصيّة ومفهومًا ومعنىً.

فالوجود خَلقٌ بفعل الخالق، أي: لو لم يكن الخالق ما كان للوجود وجود، وأوّل وجود نعلمه هو: وجود الكون المرتق، ثمّ الانفتاق العظيم الذي جعل من الكون المرتق أكوانًا مفتقة، بُعثت فيها الحياة وجودًا متكاثرًا بغاية خلقيَّة لا يدركها إلّا الخالق، ولكن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لكلّ متدبّر وجودًا يدركه في دائرة: (السلبيَّة والإيجابيَّة)، وخير المتدبّرين الذين يمتلكون الحرّيَّة ويتصرّفون عن إرادة بلا مكاره.

ومن ثمّ فالوجود نشوء يتولّد خلقًا بعضه من البعض، كتولّد الأكوان من الكون المرتق، وتولّد الأرض من كوننا الذي يملأه الوجود بالقوَّة الخلقيَّة، ثمّ نشوؤنا من الأرض وإنباتنا منها نباتًا.

والوجود ارتقاء إنساني: (ثقافة، وفكر، وعلم، وخُلق، وذوق) به يتميّز الإنسان: (قيمة في ذاته) عن بقية الوجود الواسع، سواء أكان مدركًا لما حوله عن إرادة حرّة أم أنَّه يجهل أمره؛ فهو في كلتا الحالتين الإنسان الذي خُلق وجودًا في أحسن تقويم، ومن هنا وجبت رعاية القصّر والمعاقين والعجزة والمرضى كما وجب الإصلاح والتغيير للأفضل من أجل من خُلق في أحسن تقويم.

وعليه:

فالوجود الإنساني في أساسه وجود منتج متطوّر ارتقاء، ولكن بعلل القصور وأسبابه المختلفة جاء الاستهلاك وفقًا للحاجات المتطوّرة استثناء، ولهذا فالوجود الإنساني ينبغي أن يكون دائمًا في حالة ارتقاء، من خلال تطوّر الحاجات وتنوّعها وضروراتها التي تستوجب التدبّر تفاديًا للانحدار والهلاك.

ومع أنَّ الوجوديَّة كما يرها سارتر تنادي بمبدأ أسبقيَّة الوجود existence على الماهيَّة essence، لكنّنا نقول: لا الدّجاجة أسبق على البيضة، ولا البيضة أسبق على الدّجاجة فالوجود والماهيَّة شيئان في شيء واحد، فلو لم يكن الوجود ما كانت الماهيَّة، ولو لم تكن الماهيَّة ما كان خلق الإنسان في أحسن تقويم، فماهيَّة الإنسان لو لم تكن معطياتها قد خُلقت وجودًا ما كان للإنسان رُقيّ، ولكن الإنسان وإن ارتقى إلى ما يمكن بلوغه ارتقاء فسيظل قاصرًا وفقًا لقدراته المحدودة، التي لا تُمكّنه من أن يكون الله كما اعتقد الفيلسوف سارتر بقوله: "أنْ أكون إنسانًا، هذا يعني: أنْ أنحو لكي أكون الله"[137].

ولأنَّ القاعدة المنطقيَّة تقول: (لا معلول إلّا ومن ورائه علّة، ولا سبب إلّا ومن ورائه مسبّب)؛ فإذن وجب الاختلاف مع قول الفيلسوف سارتر: "كل موجود يولد بلا سبب، ويستطيل به العمر عن ضعف منه، ويموت

[137] جان بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهراتيَّة، (ترجمة: عبد الرحمن بدوي) دار الآداب، بيروت، 1953، ص 218.

بمحض المصادفة"[138]، وهنا أقول: لا أدري كيف يموت الموجود بمحض المصادفة وهو لا يمتلك قرار موته، وبخاصّة أنَّ سارتر قد ربط الوجود الإنساني بالحرّيَّة، وكأنّ من لا حرّيَّة له لا وجود له!

ولأنَّ الكمال لله وحده فكان التناقض في شيء من تنظيرات الفيلسوف سارتر الذي قال: "عندما الأغنياء يخوضون حروبًا مع بعضهم البعض فإنَّ الفقراء هم الذين يموتون" أي: إنَّ سارتر قد اعترف بسبب من أسباب الموت وهو الاقتتال والحروب، التي تدور رحاها من أجل المكاسب والمغانم أو الحرّيَّة، التي هي السّبب في موت الفقراء بقرار من الأغنياء، وهنا لا موت بمحض المصادفة، بل الموت بسبب من ورائه مسبب[139]، أي: إنَّ الموت لم يكن مطلبًا، بل هو وجود لا يمكن إنكاره فمتى ما شاءه المميت كان وجودًا شاهدًا على نهاية الحياة، والموت لو لم يكن وجودًا فاعلًا، ما كان له الأثر المشاهد والمحسوس والملاحظ.

وعليه:

فالوجود لا يقتصر على من يمتلك زمام أمره عن حريّة كما يراه سارتر، بل يمتدّ ليشمل كلّ شيء يمكن أن يتمّ التحدّث عنه، سواء أكان ماديًّا أم معنويًّا: (مشاهدًا، أو ملاحظًا، أو مدركًا)، أي: سواء أكان مكانًا أم زمانًا: (حركةً وسكونًا) وسواء أكان هيئةً أم تهيؤًا، أم أنَّه كان قرارًا وإرادةً ومسؤوليّة.

---

[138] المصدر السابق، ص 126.

[139] سارتر، جان پول، الغثيان، (ترجمة: فارس ضاهر، عدنان منافيخي) ط 2، 2006، ص 74.

ولأنَّ وراء كلّ معلول علّة، ووراء كلّ سبب مسبّب، إذن: فلا موجود إلّا ومن ورائه واجد له، أي: لا موجود إلّا ومن ورائه من أوجده على قيد الحياة والممات: (بداية ونهاية) فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لو لم يكن من ورائه خالق ما كان وجودًا، ولهذا فالخرافة الضارة أن يؤخذ بقول الفيلسوف سارتر: "إنَّ الله خرافة ضارة"[140]، وبخاصّة أنَّه يعلم أنَّه لم يَخلُق نفسه، أي: لو لم يكن من ورائه خالق عظيم ما كان شيئًا مذكورًا: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[141].

ومع أنَّ سارتر يعلم أنَّه لم يخلق نفسه، لكنّه ظنّ أنَّه لا إله يسبقه، ولهذا فهو لا يعلم الحكم المسبق عليه قبل أن يُخلق: (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)؛ فها هو سارتر لم يكن شاكرًا، وهذه من سُنن الخلق البشري حيث البعض قد اغترّ بالخالق، الذي خلقهم على التسيير والتخيير الحر: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[142].

أي: إنَّ الذي غفل عنه سارتر هو: أنَّه لو لم يكن قد خُلق على فرصة التخيير ما كان له أن يكون كافرًا، ولأنَّه خُلق مخيّرًا فيما يشاءه عن إرادة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع فهو لا يرى وجودًا لمن لم يكن حرًّا، وفي هذا الشأن قد غفل عن الوجود المسيّر، وهو: ما لم يكن داخل دائرة النسبيَّة

---

[140] المصدر السابق.

[141] الإنسان: 2، 3.

[142] الانفطار: 6 . 8.

فالوجود كلّه وجود تسيير وتخيير، والتسيير حيث لا إمكانيَّة للتبديل أو أخذ الأمر والرأي وإن صدر أو قيل من قبل القائلين؛ ولذلك فاليوم لا يتبدّل والنّهار لا يتبدّل، وخلق الأجناس لا يتبدّل وإن تغيّرت الأنواع جينيّا.

ومن ثمّ فالتسيير لا تبديل فيه، والتخيير فيه التبدّل والتغيّر والتقلّب؛ ولذا فالوجود الإنساني ثابت حيث لا تخيير، وفي المقابل جوهره (ماهيته) تتغيّر تخييرًا، وفقًا للقدرة والاستطاعة والرّغبة والحاجة المتطوّرة؛ ولذلك فسارتر لو لم يكن وجوده على التخيير ما كان له أن يقول: (إنَّ الله خرافة ضارة)، ولأنَّه قالها فهو قد أثبت غفلته عن حقيقة خلقه: (تسييرًا وتخييرًا)، أي: لو علم سارتر بخلقه مخيّرًا لآمن أنَّ من وراء وجوده خالقًا.

ومع أنَّ سارتر لم يغفل عن الوجود والماهيّة، فإنَّه قد غفل عن الهيئة التي تسبق الوجود، فالوجود: (أيّ وجود) لا يكون إلّا على هيئة تسبقه بفعل فاعل يسبقها، أي: لو لم تكن الهيئة وجودًا سابقًا على الوجود ما هُيّء الوجود على هيئاتها وجودًا مشاهدًا وملاحظًا ومدركًا.

وعليه: فالهيئة في علم المهيّء، لها الأسبيقيّة على وجود المتهيأ عليها، والمتهيّأ عليها يسبق ماهية من أصبحت له هيئة خاصّة به، وهي التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفةٍ، وخصوصيَّةٍ، ومهنةٍ، وحرفةٍ، وتجربةٍ، وخبرةٍ.

ومع أنَّ الوجود مؤسّس على ماهيَّة سابقة، وهيئة لاحقة، غير أنَّه لا مفرَّ له من العدم، فالعدم بعد الموت يلاحق الأموات بمختلف أنواع الخلائق التي تملأ كوننا؛ ولذا فإنَّ المستحيلُ خَلقًا، والمعجز نشوءً، والممكنُ ارتقاءً كلّ

منها مؤسّس على اللحظة الصّفريَّة؛ إذ لا شيء يُخلق أو ينشأ وينمو أو يرتقي إلّا في لحظة الصّفر وجودًا، والتي من بعدها يصبح الزّمن مستوعبًا له بداية ونهاية.

ولأنَّ الصّفر نقطة البداية فكذلك هو نقطة النّهاية؛ فالكون قبل أن يكون كان الصّفر دلالة على عدم وجوده، ثمّ بدأ تمّددًا إلى النّهاية التي لم يصلها بعد، وهي التي سيقف عندها صفرًا؛ فالصّفر لا يدلّ إلّا على وجود ما هو أعظم؛ ولذلك فهو يشير إلى وجود الأهم والأعظم بداية ونهاية؛ إذ لا شيء يخلق نفسه، فلو كان للشيء إمكانيَّة خلق نفسه، لكان الصّفر أوّل الخالقين لنفسه، ولهذا فالصّفر نقطة البداية لكلّ وجود، وهو نقطة نهايته، ومن ينطلق من الصّفر بداية لا بدّ وأن يقف عنده نهاية.

ومن يقول: كيف يكون الصّفر نقطة البداية والنّهاية، ولا يوصف بوجود؟

أقول:

لا يعدُّ الصّفر وجودًا؛ كونه لا يزيد عن متفق عليه تسمية؛ إذ لا شيء وجودًا.

الدّرايةُ أثر لعدمٍ:

يعد العدم أثر وجود شيء وليس الوجود في ذاته، سواء أكان ذلك الأثر يدلُّ على أثر الأحياء، أم أنَّه يدلّ على أثر الأموات والأشياء المنتهية.

والعدم لم يكن الموت، ولم يكن النّهاية: فالموت فعل بيد الخالق، والنّهاية توقّف الفعل أو المقدرة، وليس بالضّرورة توقّف الحياة.

فبصمات الأحياء وصورهم وعيّنات دمائهم لا تزيد عن كونها أثر (عدم) يدلّ على شيء، وليس الشيء ذاته، وكذلك الرّفات البالي لأيِّ شيء هو أثر (عدم) لشيءٍ كان موجودًا على قيد الحياة.

والعدم لم يكن مصدر خلق الأحياء كما يره البعض، بل هو ما يؤول إليه مصيرهم، وهو الفعل المتحقّق أثرًا؛ فالعدم لم يكن فعل الموت، ولا فعل الإنهاء، ولا يكون الوجود منه، بل على العكس من ذلك لا يكون العدم إلّا من وجودٍ فلو لم يكن الوجود ما كان العدم، ومن هنا فالعدم هو الفعل المترتّب على الوجود الذي لا بدّ من نهايته أو موته وعدمه.

ولأنَّ لكلّ بداية نهاية فالوجود ليس له بدّ إلّا النّهاية، وبعد النّهاية يصبح الزّمن كفيلًا بجعله عدما، وإلّا هل هناك من باقٍ غير الباقي الذي يجعل من الوجود عدمًا؟

ولأنَّ العدم يستظلّ بظلّ الوجود فهو يلاحق الموجودات تحت ظلّه لحظة انتهائها من المشاهدة المباشرة، ومع ذلك فالوجود هو: القاعدة، والعدم هو: الاستثناء: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}[143]؛ فتلك العظام التي كانت وجودًا على قيد الحياة، أصبحت رميمًا باليًا لا علاقة له بالحياة إلّا البعث.

فالوجود كونه قاعدة؛ لأنَّ صفته البقاء، والعدم كونه استثناء؛ لأنَّ صفته الانتهاء: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[144].

---

[143] يس: 78، 79.

[144] العنكبوت: 64.

ومع أنَّ الوجود الأوّل خُلق من لا شيء بفعل الخالق، لكن من بعده كثير من المخلوقات خلقت من أشياء كما هو حال الإنسان وغيره كثير: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[145]، ثمّ كثير من الوجود خُلق تكاثرًا: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[146].

وعليه: فلا (حياة) إلّا عن خَلق، ولا (إحياء) إلّا من عدم: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[147]؛ ولذلك فالوجود سابق على العدم، والحياة سابقة على الإحياء.

ومع أنَّ مفهوم العدم يختلف عن مفهوم الوجود، فإنَّ هناك علاقة وثيقة بينهما فالعدم الذي يلاحق الوجود الحي ليجعله رميمًا باليًا، لا بدّ أن يكون فعله على قيد الحياة موجودًا، وإلّا كيف له بجعله عدمًا؟

ولأنَّ العدم على قيد الحياة وجود، فلا يمكن أن يكون نقيضًا للوجود بأسره؛ ولذلك فالوجود مفهوم مطلق يحتوي كلّ شيء على قيد الحياة، وبما فيها العدم، ومن هنا، فالعدم ليس نقيض الوجود، بل هو جزء منه، وإلّا هل هناك من يرى أنَّه لا وجود للعدم؟

ولأنَّ للعدم أثرًا، إذن: فهو موجود، وإلّا هل هناك من يرى أنَّ وجود الأثر لا يدل على وجودٍ؟

---

[145] يس: 36.

[146] الروم: 20.

[147] الروم 27.

ولأنَّ العدم موجود فلا يمكن أن يكون ذا مفهوم مضادٍّ لما هو عليه (الوجود)؛ ولتبيان ذلك، أتساءل:

ما هو دليل إثبات الوجود؟

ما هو دليل إثبات العدم؟

الوجود والعدم لا مادّة حيث لا يشاهدان، ولأنَّهما كذلك فهل يظنّ البعض أنَّهما غير موجودين؟ ولكن إن اعترفنا بوجودهما فماذا يعني؟ وإن اعترفنا بوجود أحدهما، وليكن الوجود، فأين الآخر (العدم)؟ أي: هل انتهى العدم من الوجود، ولن نخشاه بعد اليوم أبدًا؟ أم أنَّه باقٍ يلاحق الأحياء أينما حلّوا؟

أقول: كيف نقبل بأنَّ للحياة الدّنيا ركائز رئيسة وعلى رأسها الوجود والعدم، ثمّ نأتي لنقول: العدم عكس الوجود؟

فإن قبلنا بذلك؛ فإنّنا كمن يقول: لا وجود (لا حياة). بمعنى: وكأنَّه أينما وُجد وجود عُدِم.

ولأنَّ لكلٍّ من الوجود والعدم أثره، إذن: فكلاهما موجود فكما خَلق الخالق الوجود خلق العدم، ولكلّ فعله، وبما أنَّهما مخلوقان، إذن: فهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة.

وماذا يعني: أنَّهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة؟

يعني: أنَّ وجودهما في الحياة الدّنيا مؤقّت؛ ذلك لأنَّ الحياة برمّتها زائلة: {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[148]، ولأنَّها الزائلة وهما جزء منها إذن: لا شكّ أنَّهما الزَّائلان.

ولأنَّ لكلّ منهما أثره على قيد الحياة؛ حيث أثر الوجود البقاء: (بقاء المخلوقات)، وأثر العدم الفناء: (رفات الفانيات). إذن: لا شكّ أنَّ لكلّ منهما وجودًا.

وقد يتساءل البعض:

ألا يعني ذلك كمن يقول: العدم أصبح وجودًا؟

لا شكّ أنَّ العدم وجود دالّ على وجود الفانيات، ولكنَّه لم يكن الوجود بأسره، بل هو جزء منه؛ ولذلك فالوجود عكسه الفناء وليس العدم، أي: إنَّ أثر الوجود بأسره هو الخلائق، أمَّا العدم فهو أثر رفات تلك الخلائق وما تتركه من بصمة.

ولأنَّ العدم لو لم يكن موجودًا ما ترك أثرًا، إذن: فالقاعدة المنطقيَّة:

كلّ أثر موجود

العدم أثر

إذن: العدم موجود

ولكن ماذا يعني: أنَّه موجود؟

---

[148] الرّعد: 26.

يعني: أنَّ العدم فعل من أفعال الوجود، فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ ولذلك فالعدم مرتبط بالوجود ولا ينفصل عنه، فحيث ما حلّ الوجود حلّ، أي: لو لم يكن الوجود، هل يمكن أن يكون العدم؟ ولهذا فالعدم وجود، ولكنّه لم يكن الوجود.

فالعدم مع أنَّ وجوده متحقّق في الحياة الدّنيا، فإنَّه لن يكون كذلك في الحياة الباقية، ممّا يجعل بقاء الوجود في تلك الحياة بلا عدم.

ولأنَّ الحياة الدّنيا مؤسّسة على البداية والنّهاية فهي زائلة، ولأنَّها زائلة؛ فلا وجود ولا عدم.

وعليه:

فالوجود والعدم حقيقة لا فارق فيها، فحيث ما حلّ الوجود حلّ العدم، وكذلك حينما ينتهي الوجود ينتهي العدم، وفقًا للقاعدة العلميَّة: (لكل بداية نهاية).

ولذا فلو لم يكن للعدم وجود ما كان للحياة نهاية، وبما أنَّ العدم موجود وله نهاية، إذن: لا يمكن أن يكون هو النّهاية، بل النّهاية عدم العدم، الذي من بعده تستمرّ الحياة.

ولذلك فالوجود لم يُخلق من العدم، وكذلك العدم لم يُخلق من الوجود، ولكن كليهما مخلوقٌ لأداء مهمّة الحياة المؤسّسة على البقاء الفاني، ولو لم يكن الوجود ما كان للعدم شأن، ولو لم يكن العدم ما كان للوجود شأن، ومن ثمّ فحيثما كان الوجود بالقوّة، كان العدم بالضّرورة.

الوجود والعدم خُلقا على القوّة، ولم يكونا موضع اختيار؛ ولذا فمتى ما حان وقت الخلق يصبح المخلوق وجودًا، ومتى ما وجب وقت انعدامه فلا يكون إلّا عدمًا.

ولأنَّ الوجود عن غير طلب ولا رغبة فكذلك العدم يتحقّق بالقوّة عن غير طلب ولا رغبة.

ولذلك فالقاعدة:

كلّ وجود يلازمه عدم.

الكون وجود.

إذن: الكون يلازمه عدم.

ولذلك فالحياة الدّنيا ليست وجودًا مجرّدًا، بل وجودًا وعدمًا؛ ولهذا فهي المؤسّسة على الفناء.

ولأنَّنا نعلم ذلك فعلينا أن نفكّر في كلّ شيء أكثر من مرّة، قبل أن نقدم على فعل شيء، ولأنّنا مخلوقون فعلينا أن نفكّر وجودًا وعدمًا، ولا نبقى على غير صفاتنا التي بها تميّزنا خلقًا: {قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[149].

ولأنَّنا على قيد الوجود أحياء فإنَّنا لن نكون في حاجة لمن يثبت وجودنا، فإن كنّا في حاجة لمن يثبت وجودنا فغيرنا لن يعدّنا إلّا عدمًا؛ ولذلك لا ينبغي أن نكون كما تنصّ عليه مقولة الفيلسوف ديكارت: (أنا أفكر،

[149] التين: 4.

إذن: أنا موجود)[150]. بل ينبغي أن تكون مقولتنا: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، وبمقارنة المقولتين نتبيّن الفارق بينهما فالمقولة الأولى (أنا أفكر، إذًا أنا موجود) تضع التفكير شرطًا للوجود، وكأنَّ الذي لا يفكر غير موجودٍ، فالكون والوجود والعدم والأنهار والمحيطات على الرَّغم من وجودها لكنّها لا تفكّر فهل عدم مقدرتها على التفكير يلغي وجودها؟

أمَّا المقولة الثَّانية: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر) تضع الوجود شرط للتفكير. أي: لو لم يكن ديكارت موجودًا ما فكّر فيما يفكّر فيه؛ ولذا فمن يكون موجودًا ولا يفكّر فلا يعدّ عقله إلّا عدمًا ووجوده لا يعني شيئًا (وكأنَّه غير موجودٍ).

أمَّا قوله: (أنا أكون، أنا موجود I am, I exist)؛ فهو كمن يقول: لا أشكّ في وجودي، وهذه المقولة مع أنَّها جاءت سابقة على قوله: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، فإنَّها أكثر وثوقًا، فالموجود لو لم يكن موجودًا ما سُئل عن وجوده ممّا يدعو الموجود إلى عدم الإجابة؛ ليكون امتناعه عنها أكبر دليل على وجوده، ومن ثمّ يعوّض الوقت الذي أضاعه زمن استماعه لذلك السؤال، ويصبح الوقت بالنسبة له لم يعد صفرًا.

موتُ الموت درايةً:

نعم. أنَّه لا موت إلَّا لأحياء، ونعم لا بقاء للأحياء بما أنَّ الموت حيًّا، ولا يمكن أن تقوم السَّاعة بغاية البقاء الدَّايم ما لم تمت الموت؛ ولذا فالموت

---

[150] ديكارت: مقال عن النهج، ترجمة محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985، ص 190

هي: إنهاء الحياة المؤقّتة وكذلك إنهاء وجود العدم، أمّا موت الموت؛ فهو إنهاء الحياة والوجود؛ ولذا فالموت فعل تحقيق العدم وجودًا.

ومع أنَّ الموت يواجه الحياة، فإنَّه لا يواجه الوجود، بل هو جزء منه، وإلّا هل هناك من ينكر وجود الموت على قيد الحياة وجودًا؟

ولأنَّها الحياة الدّنيا فهي: (حياة وموت) وهذا يعني: (أنَّ نصف الحياة موت)، ولو كانت الحياة الدُّنيا طلبًا، فلا شك أنَّ من يطلبها سيجد نفسه ضمنًا قد طلب الموت سواء أكان يدري أم لا يدري؛ إذ لا حياة إلّا والموت يساوي نصفها.

فالموت والحياة كفّتا الوجود، والوجود على مستوى الشيء واللاشيء يمكن أن يكون أحياء، ويمكن أن يكون معدومين، فوجود الأحياء وجود خلق، ووجود العدم وجود موت؛ ولذلك فالخلق أثره وجود الأحياء من كلّ نوع، والعدم أثره وجود الأموات من كلّ الأنواع.

وسيبقى الموت حيًّا ما بقيت الحياة، وسيبقى الأموات أثرًا ما بقي العدم، إلّا الموت عندما يموت لا يترك أثرًا؛ ذلك لأنَّ الموت لم يكن أثرًا إلّا على الأحياء، في حين أنَّ العدم لا يكون أثرًا إلّا على الأموات، فكما أنَّ النّهاية مصير الحياة الدّنيا التي تشكّل 50% من الوجود فكذلك النّهاية مصير الموت الذي يشكّل نصف الوجود الآخر.

فعندما تكون الحياة الدنيا تساوي 50% من الوجود، يكون الموت مساويًا 50% منه، وعندما يصبح العدم 100% وجودًا، تكون الحياة

مساوية صفرًا، وفي المقابل عندما تكون الحياة الآخرة 100% وجودًا يصبح العدم صفرًا؛ حيث لا موت.

ومن ثمّ فالموت لا يخيف؛ حيث لا أحدَ يستطيع أن يفعل لك شيئًا أكثر ممّا يفعله، وهو لا يُفعل إلّا مرّة واحدة، ولا يتكرّر، ولا مفرّ منه، وبموته تنبعث الحياة من جديد، وتبقى من بعده وجودًا ولا موت.

ولأنَّ الحياة الدنيا لا تساوي إلّا 50% من البقاء، في مقابل 50% موت، إذن: فالحياة الدنيا جاءت منقوصة: (فاقدة لمعطيات البقاء)؛ ولأنَّها المنقوصة فسميّت: (الدُّنيا) أي: الحياة السُّفلى (الحياة الزائلة): {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[151].

ولذا فالقاعدة المنطقيَّة تقول:

كل مخلوق فانٍ.

الموت مخلوق.

إذن: الموت فانٍ.

والتساؤل: إذا الموت قضى على الحياة فمن الذي سيقضي على الموت؟

لا مخلوق إلَّا ومن ورائه الخالق، والخالق هو الذي: {يُحْيِي وَيُمِيتُ}[152].

---

[151] الأعلى: 17.

[152] البقرة: 258.

ولأنَّ الحياة مخلوقة والموت مخلوق، وأنَّ لكل مخلوق بداية ونهاية، إذن: فلا مفرّ للموت من الموت: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[153].

وعليه:

فالخَلق فعل تسبقه هيئة لصورة لم تكن، وهي التي من بعده تصبح الصورة القابلة للمشاهدة والملاحظة؛ ولذا فالخلق وجود ما لم يكن موجودًا، سواء أكان كونًا بأسره، أم شيئًا منه: (حيّزًا، أم فراغًا، أم حيويَّة، أم مجرات، أم طاقة، أم كواكب ونجومًا، أم أنَّه خَلق من هذه الأجزاء كما هو حال الأزواج التي منها آدم وزوجه).

ولأنَّ الخلق فعل الخالق فهو المتحقّق على المشيئة دون رأي لمخلوق في خَلقه، وهنا تكمن الكينونة، التي وجُدت المخلوقات عليها هي كما هي، ومع أنَّ الخَلق مؤسّس على فعل الكينونة (كن)، فإنَّ للصّيرورة وجود أيضًا، فأبونا آدم وزوجه اللذان خُلقا بكينونة الإنبات من الأرض، خُلقا في أحسن تقويم، وهو الذي فيه صَنعة الحُسن لا تتغيّر.

أمَّا الأخلاق والقيم والفضائل فتكتسب وتُعلّم وتتجسّد في القول والعمل والسّلوك، وقد لا تتجسّد، وهنا تكمن العلّة، التي تؤدّي بمن يتخلّى عن القيم والفضائل إلى الانحدار والدونيَّة، التي لا تليق بمن خُلق على الارتقاء قمّة.

---

[153] الرحمن: 26، 27.

ولذلك ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية فانحدرا هبوطا من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا أصبح الصّعود للقمّة مطلبًا وأملًا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنًا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[154]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدونيَّة، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه، ومع ذلك فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبًا إلى جنبٍ مع القصاص الحقّ.

فبنو آدم بعد أن هدأت أنفسهم بالأنباء والرّسالات بدأوا يتذكّرون ما يؤلم ويعملون على تفاديه اتعاظًا، ويتدبّرون أمورهم تحدّيًا للعوز والحاجة، ويفكّرون فيما يجب ارتقاء ويسعون إليه عملًا، فنظروا إلى الخَلق وهم يتأمّلون فيه كيف خُلق: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[155]، حتى عرفوا أنَّ الخَلق لم يكن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فاستطاعوا أن يميّزوا بين الصّعب والمستحيل؛ فالصّعب قبلوا بتحدّيه ساعة بساعة، أمَّا المستحيل فهو ما يحول بينهم وإمكانيَّة فعله.

---

[154] : 29.

[155] الغاشية: 17.

ولأنَّه كذلك فلا يُفعل إلّا فعلًا؛ حيث لا إمكانيَّة لعمله؛ ذلك لأنَّ العمل في دائرة الممكن يتطلّب جهدا لينجز، أمَّا الفعل فلا يكون إلّا بالأمر النّافذ، والأمر النّافذ لا يكون إلّا من الفعّال له، ومن هنا يصبح المستحيل مستحيلًا.

وعليه: إنَّ العلاقة بين الخَلق والمستحيل علاقة وجود الشيء من لاشيء، ثمّ وجود المستحيل خلقًا من الشيء المستحيل (خَلق الشيء من الشيء) كما هو خلق الأرض، وخلق الأزواج منها، ثمّ خلق التكاثر من التزاوج (شيء مستحيل من شيء مستحيل)؛ إذ لا إمكانيَّة لخلق ما يُخلق.

ولهذا فلا خَلق إلّا ومن ورائه خالق، والخالق لا يُمكنه أن يَخلقَ نفسه، فلو قبلنا بخلقه لنفسه فلا استغراب أن يخلق غيره، فالكون الذي قال البعض عنه: إنَّه خَلق نفسه، ولا خالق من ورائه، فلو كان كذلك؛ لكان على المقدرة التي تجعله يخلق غيره.

ومن ثمّ فالخالق يَخلق ولا يُخلق ومن يُخلق، سيظل جاهلًا بقواعد الخلق التي خُلق عليها؛ ذلك لأنَّ قواعد خلق المخلوق تسبقه؛ فلو لم تكن ما كان، وهي التي لا تكون إلّا بيد الخالق، فالمخلوق بإمكانه أن يفكّر في نفسه وفي غيره، ولكن التفكير في النّفس والغير لا يزيد عن كونه تفكيرًا داخل دائرة الممكن، التي إن تمكّن منها الإنسان تمكّن من معرفة المستحيل إعجازًا، ومع ذلك فآفاق المعرفة مفتّحة: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[156]، أي: لا ينبغي أن يتوقّف التفكير الإنساني عند مشاهدة الإبل (الكائن المخلوق)،

[156] الغاشية: 17.

بل عليهم أن ينظروا إلى الكيفيَّة التي خُلقت عليها، فعليهم أن يفكّروا ويتأملوا حتى يبلغوا المستحيل، فبلوغ المستحيل ليس بمستحيل، بل المستحيل هو ما لا يتمكّن المخلوق من خلقه؛ ذلك لأنَّ المستحيل لا يُخلق إلّا فعلًا: (إذ لا جهد يبذل)، أمَّا الممكن فيُخلق عملًا: (إذ الجهد يبذل).

فقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) قول استفهامي (الاستفهام في هذه الآية استفهام إنكاري، بمعنى: ما الذي يمنعكم من النظر في خلق الإبل؟)، أي: لِمَ لا تنظرون إلى الكيفيَّة التي خُلقت عليها الكائنات التي بين أيديكم؟ أي: انظروا حتى تروا المعجزات، واعملوا حتى تقفوا عاجزين، وحينها تتيقّنون بأنَّه لا إمكانيَّة أن يخلق المخلوق نفسه.

ولذلك فأوّل ما يجب أن يفكّر فيه العاقل، هو: النّظر إلى الخَلق والتأمّل فيه بلا حدود، حتى تُدرك الكيفيَّة التي عليها المخلوقات لتُستثمر بما يفيد ويمكّن من الارتقاء، ومع ذلك فمهما نظرنا إلى المخلوقات أو الكائنات الحيّة التي منها الإبل، ستظل الكيفيَّة التي خُلقت عليها علم غيب وبلوغه مستحيل، ولكن لأجل المعرفة ينبغي أن ننظر، وهو عمل العقل الذي لا ينبغي أن يقف عند حدود المشاهد، بل ينبغي أن يتجاوزه إلى معرفة الملاحظ والمجرّد (الكيفيَّة)؛ ولذلك فلا ينبغي أن يوضع سقف على العقل والتفكير الإنساني، فالله لو شاء للسقف أن يوضع لوضعه، ولكنّ الله جعله على التخيير فلا إكراه، بل يجب أن يُمكّن الإنسان من المعرفة الواسعة، ويترك له الاختيار، ومع ذلك فإنْ اختار ما يسيء لخَلقه فالعيب لا يلحق إلّا من لم يضع البيّنة بين يديه بيّنة.

ومع أنَّ معرفة الكيفيَّة الخَلقيّة أمر مستحيل، فإنَّ النّظر إليها بأعمال العقل يمكّن الإنسان من معرفة المزيد، الذي يحفّز على البحث بلا توقّف، ويدفع إلى الارتقاء تدبّرًا.

ولأنَّ النّظر إلى الكيفيَّة الخلقية يُمكّن من معرفة المستحيل فكذلك النّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء يدفع إلى كلّ ما يمكّن من الارتقاء والدراية: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[157]؛ ولأنّ علاقة الوجود البشري مع الوجود الخلقي هي:

علاقة خَلق (مستحيل)، ونشوء (نمو)، وارتقاء (ممكن)، إذن: فالنّظر إلى الشيء ليس هو الغاية، بل الغاية أن يتدبّر الإنسان أمره عن معرفة وبيّنة حتى يدري؛ ولذا وجب النّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء، فالنّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت يمكّن الإنسان من معرفة المزيد استكشافًا؛ فمعرفة الكيفيَّة متى ما ألمّ بها الإنسان تمكّن من الصّعود والدراية الممكنة من بلوغ المزيد من الارتقاء؛ إذ لا موانع في دائرة الممكن أمام المقدرة، أي: بما أنَّ بني آدم يمتلكون المقدرة فليرتقوا إلى السّماء بلا تردّد، ومتى ما عرفوا كيفيَّة الارتقاء عرفوا إمكانيَّة المزيد منه حتى يبلغوا معطيات ذلك الانفتاق العظيم، ومعطيات كيفيَّة رتقه من جديد، وحينها سيكتشفون ما لم يسبق لهم اكتشافه، فلينظروا إلى السّماء، ثمّ ينظروا إلى الكيفيَّة التي بها خُلقت وارتقت إلى هناك بعيدًا عن الأرض التي فتقت منها. فالنّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء يُمكّن من

[157] الغاشية: 17 . 20.

معرفة الكيفيَّة التي بها فُتقت السّماوات والأراضين أكوانًا، والتي عندما يتمّ التعرّف عليها يصبح الارتقاء قمّة متجاوزًا لإحداث النُّقلة المأمولة.

ومن ثمّ فلا داعي للتأخّر، بل ينبغي الإسراع بلا تسرّع، والنّظر في الكيفيَّة التي رَفعت السّماء الدّنيا عن الأرض الدّنيا، كما رفعت بقيَّة السّماوات والأراضين طباقًا فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن معرفة الكيفيَّة التي عليها الخَلق: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) ولا يغفل عن النّظر إلى الكيفيَّة التي بها تمّ الارتفاع: (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)، أي: لا ينبغي أن يغفل عمَّا يمكّنه من الارتفاع عن كلّ دونيَّة؛ ذلك لأنَّ التفكير فيما يؤدّي إلى الارتفاع يمكّن من معرفة ما يفيد وينفع ارتقاء.

ومن هنا فالنّظر إلى الكيفيَّة التي رَفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي بها يتمّ تجاوز الجاذبيّات جاذبيّة بعد جاذبيّة؛ ذلك لأنَّها لم تكن شيئًا مستحيلًا، حتى وإن كانت على الصّعوبة؛ ولذلك فالنّظر إلى الكيفيَّة يُمكّن من تحدّي الصّعاب التي جاء خلقها نعمة للعقل البشري، أي: لو لم تكن الصّعوبات لكان مستوى العقل الآدمي مستوى حيوانيًّا، لا يفكّر إلّا فيما يشبع نهمه، بمعنى: لو لم تكن الصّعاب ما كان التذكّر واعظا، ولا التدبّر موقظًا، ولا التفكّر مرشدًا، ولا التحدّي قاهرًا للصعاب.

ولأنَّ العقل الإنساني يُمكّن من الفُسحة في كيفيَّة الخَلق والنّشوء والارتقاء فهو الممكّن من معرفة ما يؤسّس للعمل أو ينشئه عملًا، ولكن يظل عقل الإنسان في حاجة لما ينبهه ويستفزّه تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا، ولهذا جاء الخَلق مشاهدًا وملاحظًا حتى يُرى ويُنظر إليه دون التوقّف عنده وكأنَّه النّهاية،

بل وجوده مشاهدٌ وملاحظٌ جاء محفّزًا على ما يمكّن من تجاوزه بناء وإعمارًا؛ ولهذا فالنّظر إلى كيفيَّة خلق الإبل يمكّن من معرفة المستحيل الذي لا يكون إلّا بفعل الخالق، والنّظر إلى كيفيَّة رفع السّماء يمكّن من معرفة قدرة الخالق، وما فسحه مِن آفاقٍ أمام العقل البشري إنْ أراد ارتقاء، وهنا تكمن العلاقة بين الممكن الصّعب والمستحيل، فالمستحيل (ما لم يتمّ بلوغه) على الرَّغم من فسحة كلّ شيء أمام العقل البشري، أمّا الصّعب: فهو الممكن على الرَّغم من صعوبته المحفّزة على قبول التحدّي؛ ولذلك فالنّظر إلى السّماء كيف رُفعت، نظر إلى (مستحيل وممكن في وقت واحد)، ولهذا بدأ الإنسان مؤخّرًا بغزو الفضاء، وهو يعلم أنَّ أمامه المزيد ممّا هو أعظم ارتقاء.

أمَّا النّظر إلى كيف نُصبت الجبال: (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) فيُمكّن من معرفة ما يرشد إلى البناء والإعمال، أي: يُمكّن من علم الهندسة في التصميم والعمران؛ فمفهوم قوله: أفلا ينظرون إلى الجبال كيف نصبت؟ هو قول يُمكِّن من التدبّر، أي: وكأنَّه يقول: عليكم بمعرفة الكيفيَّة التي عليها أنشأت الجبال، فأنشئوا ما شئتم من بيوت، وصمّموا ما تشاؤون؛ فالنّشوء في دائرة الممكن وإن كان صعبًا فهو ليس بمستحيل، فانظروا إلى الجبال، واجعلوا جبالًا من الأبراج إن استطعتم، وفوق ذلك لا ينبغي الإغفال عن العلاقة وكيفيّتها بين رفع السّماء ونصب الجبال، أي: لا ينبغي التوقّف عند رؤية الجبال، ولا السّماء، بل يجب التفكّر فيها، وكيف خُلقت ورُفعت ونُصبت؟ ثمّ التفكير في الكيفيَّة التي بها سُطحت الأرض: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) حتى تعرفوا كيف تعمروها وتستخلفوا فيها علما وحضارة وارتقاء، وكيف

تنشئون فيها حياة تمهّد لعلاقات إنسانيَّة مؤسّسة على فضائل وقيم وعمل منتج يمكّن من إحداث النُّقلة.

إنَّ النّظر في أيَّةِ كيفيَّة هو نظر تفحّص من أجل التبيّن الذي به تتمّ المعرفة الواعية بما هو كائن وما يجب أن يكون، ممّا يستدعي ملكات العقل إلى التفكير الممكّن من صياغة فروض أو تساؤلات تمكّن من معرفة الجديد وإنتاج ما هو أجد؛ ولذلك فمعرفة كيف سُطِحت الأرض معرفة علم وتخطيط واقتصاد وبناء وإعمار وإنتاج، ومنافسة لا تغفل عن أهميَّة القيم في تحقيق كرامة الإنسان وآدميَّته.

فمتى ما عرف الإنسان الكيفيَّة التي بها سُطِحت الأرض، عرف الكيفيَّة التي بها يتمكّن من العمل، الذي لا مستحيل أمامه سوى المستحيل، الذي بمعرفته يرتقي الإنسان إلى معرفة الخالق إعجازًا؛ إذ لا خَلق إلّا بفعل الخالق.

ولأنَّ الخَلق يُفعل فهو الذي يُفعل بغير جهدٍ؛ ولذلك فالخالق يفعل ما يشاء كيفما يشاء أمرًا، أمَّا المفعول فهو الذي لا رأي له حتى في وجوده؛ ولذلك فلا وجود لشيء إلا بفعل ليس بيده.

ولأنَّ لكلّ شيء صفة؛ فصفة الخَالق لا يمكن أن تكون صفة المخلوق، ولهذا فلا يمكن أن يكون المخلوق خَالقا؛ ذلك لأنَّ الخَلق ليس من صفاته، والخالق لا يُخلق لأنّ صفة الخَلق لا تكون إلّا بأمره، ومن يرى غير ذلك اجتهادا، فَلِمَ لم يكن خالقا لنفسه؟ ولِمَ لا يخلق غيره؟

ولأنَّ لكلّ مخلوق صفة خُلق عليها، وتميّز بها فلا شكّ أنَّه سيظل عليها متميّزًا عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفة وخاصيّة، ولهذا سيظل للكون الدّنيويّ صفة تختلف عن صفات الأكوان الأخرى التي تعلوه طباقًا، بمعنى: سيظل كوننا على صفته وإن حدثت فيه تغيّرات أنقصت من حجم ظلمته أم زادتها اتساعًا، أو أنقصت من عدد مجرَّاته أم زادتها عددًا، وهكذا يمكن أن يصبح الفراغ بين تمدّد وانكماش ولكلّ وظيفته.

ولأنَّ لكلّ مخلوق هيئة، ولا هيئة للخالق؛ فكان الكون على هيئته يتمدّد متسارعًا، حتى يُرسم شكله وفقًا لما هيأ عليه كونًا، أي: لو بلغ الكون حدود وجوده كونًا، لرُسِم له الشكل الذي لا يكون إلّا على هيئته؛ ولهذا فهيئة الخلق علم الخالق، أمّا هيئة ما يره المخلوق؛ فهي في ذِهنه هيئة، وستظل هيئة حتى تأخذ شكلًا أو صورة بها تُدرك من قِبل الغير.

والخالق لا يمكن أن يُخلق من عدم، فالعدم لا يكون إلّا وجودًا حتى وإن كان رفاتًا، فالمعدوم مفعول، والمفعول يفعله الفاعل؛ ولذلك فالمعدوم هو: من لم يكن على قيد الحياة وجودًا، ولكنّه على قيد الوجود عدم. وهذا يدلّ على وجوده السّابق قبل أن يصبح عدمًا بفعل الموت الذي لاحقه حتى النّهاية.

ومن هنا لا يمكن أن يكون الخَلق من عدمٍ، بل الخَلق من لا شيء يذكر، أي: وجود ما لم يكن موجودًا، سواء أكان مادّة أم ليس بمادّة؛ ولهذا فالخَلق كيفيَّة تظهر الهيئة في صورةٍ أو شكلٍ، فتلفت المخلوق العاقل لنفسه ثمّ لغيره؛ ليأخذ بأسرار الخَلق في صناعة ما يمكن أن ييسّر له الحياة ارتقاء.

وبالنّظر لخلق الكون وفقًا لِما تمّ اكتشافه وتيسّر للمعرفة؛ فهو المخلوق الذي لا سيطرة له على نفسه؛ فهو كون متمدّد في تسارعه، من أجل بلوغ النّهاية التي لم تكن من مكوّنات وجوده، فالكون لو كان خالقًا لنفسه ما كان يتمدّد متسارعًا تجاه نهايته.

إنَّ الكون الذي نحن فيه خُلق مع غيرنا من الخلائق، لو كان خالقًا لما كانت له البداية تمدّدًا والنّهاية انكماشًا، أو فتقًا ورتقًا، أو كما يقولون انفجارًا وتجمّدًا، وحتى إن اختلفت الرؤى فقد اتفق أصحابها من مفكّرين ومفسّرين وعلماء فيزياء وفلك على أنَّ للكون بداية ونهاية، ولهذا نقول: خالق البداية والنّهاية سابق على خلقهما، ومن يكون بينهما خلقًا؛ فلا يمكن له أن يكون خالقًا، وهذا بالتّمام حال الكون الذي لو لم يكن من ورائه خالق ما كان بين البداية تمدّدًا والنّهاية انكماشًا.

ولأنَّ الكون لم يكن خالقًا لنفسه، فهو على علاقة بأكوان أخرى، أي: لو كان خالقًا لنفسه ما وجدت أكوان إلى جانبه، وهي التي فُتقت منه وفُتق منها، أكوان تعدّدت والخالق واحد لا يتعدّد، إنَّه الواحد الذي يُعد ولا يتعدّد؛ ذلك لأنَّ الواحد (الخالق) لا سابق عليه، أمَّا الواحد المتعدّد فلا يكون إلّا والصّفر نقطة شروعه ارتقاء، أو لحظة فنائه انحدارًا (بداية ونهاية)؛ ولذلك فلحظة الصّفر قبل كوننا كانت الرّتق، ومن بعده ستكون لحظة الصّفر رتقًا من جديد، ممّا يجعل لحظة الفتق بداية وجود متمدّد، ولحظة الرّتق وجودًا منكمشًا.

ومن هنا يتّضح جمال كوننا تمدّدًا وانكماشًا، فكلّ شيء فيه نراه كمالًا نراه بعد نظرة لا يزيد عن كونه نقصًا؛ ذلك لأنّ النّظر في الكيفيَّة يختلف عن النّظر إلى الشّكل والصّورة فمهما عظم شكل الكون أو صورته فلا يؤتمن جانبه، فهو المملوء براكين وصواعق وزلازل وشُهبًت ومجرَّات ونارًا وظلمة وماء وسماء، إلى جانب شياطين الإنس والجنّ، مع وافر القلق والألم والوجع والخوف، ثمّ الموت.

ولهذا فالحياة فيه يملؤها الرّعب والظّلم والعدوان، والسّلب والنّهب، والتّعب والملل واليأس، ومع ذلك فهو المهدّد بالزّوال الذي لا يكون إلّا فجأة: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً}[158]، ولأنَّه كذلك فلا كمال فيه، ولهذا مهما تحقّقت فيه من آمال فهي ستكون منكسرة ما لم ترتقِ بأصحابها إلى رتق السّماوات والأرض؛ لتكون الحياة عيشًا رَغِدا مع وافر النّعم المشبعة لكلّ الحاجات المتنوّعة والمتطوّرة.

ولذلك فالحياة الدّنيا مع أنَّها مملوءة بثروات ونعم، فإنَّها لا تكون ارتقاء إلّا بالعمل، ولهذا بُعثَ الأنبياء والرّسل جميعهم من أجل العمل الصّالح: {وَقُلِ اعْمَلُوا}[159]، ومع ذلك فالحياة الدّنيا بداية ونهاية هي حياة ألم: (ألم الولادة وألم الموت)، وسيظل الألم مستمرًّا ومتسارعًا مع استمرار تمدّد الكون وتسارعه، ولن يتوقّف ما لم يتوقّف تمدّد الكون المتسارع.

ولذلك سيظل الكون متمدّدًا حتى النّهاية التي يقف عندها الألم صفرًا، وهي لا تكون إلّا بعلّة أو سبب، ولأنَّها لا تكون إلّا بهما فهي متى ما

---

[158] الأنعام: 31.

[159] التوبة: 105.

حدثت وفّرت لنا حُكمًا بأنَّ الكون لم يَخلق نفسه، بل خلقه الذي جعل له بداية صفريّة ونهاية صفريّة، وهي التي من بعدها ينكمش بملامسة ما يُعيده مُرتقًا من حيث انفتق وتمدّد.

ولأنَّ الكون لا يتوقّف أو ينكمش عن تمدّده إلّا بعد بلوغه نقطة الصّفر التي متى ما استشعرها أو لامسها انكمش حتمًا، إذن: فليس له بدّ إلّا التوقّف أو الانكماش إلى حيث نقطة البداية التي تعيده إلى الاستقرار بلا مخاوف، ومن ثمّ عندما يبدأ انكماش الكون فانكماشه سيزيح فراغًا من خلفه، وفي المقابل سيترك فراغًا من أمامه، ممّا يجعل ذات الحركة مؤثّرة على بقيّة الأكوان انكماشًا، حتى تعود إلى نقاط رتقها التي انفتقت منها أكوانًا، والتي من بعدها سيصبح الكون المرتق كونًا عظيمًا: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[160].

ولأنَّ الوجود لم يُخلق كلّه من لا شيء كما هو خَلق هيئة الكون فهناك على الكثرة أشياء خُلقت نشوءًا من الكون كما هو نشوء الأرض مكوّرة، ونشوء آدم وزوجه منها نباتًا: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[161]، ثمّ نشوء التكاثر تزاوجًا، وكلّ هذه المخلوقات سواء أكانت من لا شيء أم من شيء قد أوجدت ثلاث دعائم تُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي كان عليها المستحيل خَلقًا: (خلق الوجود من لا وجود)، والتي كان عليها الإعجاز نشوءًا (خلق الشيء من الشيء)، والتي يكون عليها الممكن ارتقاء: (بين كينونة وصيرورة)،

---

[160] الأنبياء: 104.

[161] نوح: 17.

فهذه الدّعائم تُمكّن من ربط العلاقة بين الخالق والمخلوق بما هو: (مستحيل ومعجز وممكن).

ولأنَّ المستحيل هو خَلق بلا سابق: (وجود لم يسبقه وجود) فينبغي النّظر إليه حتى بلوغه مستحيلًا، وكذلك المعجز وهو خلق الشيء من الشيء ينبغي النّظر إليه حتى بلوغه شيئًا معجزًا، أمَّا الممكن فهو مَكمن الخوارق، فمن بلغه عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازًا، ومن بقي في دائرة المتوقَّع فلا إمكانيَّة لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

الدّراية العقليَّة للوجود نشوءً:

الدّراية المام عقلي ومعرفي مع وعي بما يجب تجاه المدرى به والمتعرّف عليه، وبخاصّة الوجود نشوءً؛ كونه نشوء الشيء يذكر من اللاشيء لا يذكر إلّا إعجازًا ومستحيلًا؛ ولذا فإنَّ عمليَّة إيجاد الشيء من الشيء تعدّ نشوءًا، حتّى وإن كان الشيء متناهيًا في صغره لا شيئًا يوصف.

فإذا سلمنا أنَّ الانفجار العظيم من تلك الذّرة فلا بدّ أن نسلّم بخلق الذّرة، ونشوء الانفجار منها، وإذا سلّمنا بخلق اللاشيء فلا بدّ أن نسلّم بنشوء الشيء منه، وإذا سلّمنا بخلق الأرض فلا بدّ أن نسلّم بنشوئنا منها: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ}[162].

[162] هود: 61.

فالنّشوء لم يكن خَلق البذرة، ولا حتّى زرعها، بل ضرب جذورها في الأرض ونموّها؛ لتكون وجودًا مشاهدًا بداية ونهاية، ونشوء النبتة يمرّ بمراحل نموٍّ؛ من بذرة تُبذر إلى بذرة تُجنى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[163].

أمَّا كيف وُجدت البذرة الأولى فلا أحد يعلم، ولا أحد يدّعي إيجادها، بل نبتت من الأرض مثلما نبت الإنسان منها، غير أنَّ النبتة جذورها ضاربة في الأرض، أمَّا الإنسان فقدميه ثابتة على ظهرها وفقًا لقانون الجاذبيَّة حركةً وسكونًا.

فالبذرة لا أحد يظنّ أنَّها الخالقة لنفسها كما ظنّ البعض بخلق الكون نفسه من لا شيء، ولكن من يسلّم أنَّ البذرة لم تَخلق نفسها فعليه بتصحيح تلك المعلومة الخاطئة التي كُتبت عن خلق الكون من غير خالق بمعلومة صائبة تؤكّد أنَّ: (وراء كلّ مخلوق خالق).

فالنّشوء الخلقي نشوء تكاثر، وهو خلق الشيء من الشيء، فالخلق البشري الذي نشأ من آدم وزوجه أصبح كمًّا بشريًّا هائلًا يزيد تعداده عن السبعة مليارات من البشر، أمَّا تضاعف البذرة النباتيَّة؛ فلا يحصى بيسرٍ: {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ}[164].

ولأنَّ النّشوء تكاثر فالإنسان الأوّل (الزّوجان) أصبح بعد نشوئه كمًّا هائلًا: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شيئًا مَّذْكُورًا}[165].

---

[163] الأنبياء: 104.

[164] البقرة: 261.

[165] الإنسان: 1.

أي: ألا يتذكّر الإنسان أنَّه قبل أن يُخلق كان لا شيئًا، ثمَّ خُلق فأصبح شيئًا من زوجين، ثمّ تزاوج فتكاثر؟ ألا يكفي هذا دليلًا على وجود خالق لكلّ شيء؟

وعليه: إنَّ النّشوء مؤسّس على خلق الحياة، ثمّ نشوء الأحياء، أي: لو لم تُخلق الحياة ما خُلق الأحياء؛ ولذلك فكلّ من تُكتب له الحياة يُخلق على الهيئة التي تميّزه جنسًا ونوعًا، ومن ثمّ ينشأ كلّ مخلوقٍ وفقًا لسلالته التي لا يمكنه الخروج عنها، فآدم وزوجه كونهما المخلوقان من تراب فسلالتهما من طين، أمَّا بنيهم فسلالتهم من نطفة: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِّنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ}[166]؛ ولذلك فمن أين جاءت الصّلة بالقرود، وإنَّ آدم وزوجه وبنيهم: (بشرًا سويًّا)، فلا إمكانيَّة لعلاقة سلاليَّة بين البشر والقرود.

فالنّشوء لا يكون إلّا من شيءٍ، فلو لم تكن الأرض ما كان نشوؤنًا منها، ولو لم يكن اللاشيء ما كانت الأرض شيئًا منه، ولو لم يكن الانفجار العظيم ما كان اللاشيء شيئًا، ولو لم تكن تلك الذّرة، ما كان ذلك الانفجار العظيم، ولو لم يكن الخالق ما خُلق شيء: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[167].

ومع أنَّ الله خلق كلّ شيء وهو الخلّاق لما يشاء، متى ما يشاء، كيفما يشاء، وأينما يشاء، فإنَّ البشر لا يعلمون كلّ ما خُلق؛ فهناك ما يعلمونه خبرًا، وهناك ما يأخذونه أمرًا ونهيًا، وهناك ما يدركونه عقلًا، وهناك ما يرونه مشاهدة، فالبشر كما يسلّمون يقينًا بما يعلمونه فهم يسلّمون يقينًا بما يجهلونه؛

---

[166] السجدة: 8.

[167] المائدة: 17.

فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بالسّاعة، ولكنَّهم يجهلون ساعتها، ويعلمون بالنّعيم ويجهلون نعمه، ويعلمون أنَّ السّماوات والأرض كانتا رتقًا، ويجهلون كيفيّة فتقها.

ومع أنَّهم لم يكونوا شهودًا لحدوث الانفتاق العظيم، فإنَّهم واثقون من حدوثه دراية: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[168]، أي: إنَّه الحقّ في ذاته؛ حيث لا شكوك: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}[169]، إنَّه العلم البيّن الذي أبلغ عنه ولم يتحقّق بعد، وهو سيتحقّق لا محالة: {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[170]؛ إذ لا شكّ أنَّ المستقبل آتٍ وسترون بأمهات عيونكم كلّ ما أعلمتم به قبل أن تروه؛ وهكذا ستعلمون الحقائق، سواء أكانت معلومة، أم مجهولة.

ولأنَّ الخالق خلق الشّيء واللاشيء، فخلق السّماوات والأرض أشياء، وخلق ما بينها اللاشيء: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)؛ فما بينهما: هو ذلك الفراغ المملوء أشياء متناهية في الصّغر، وبتناهي صغرها توصف باللاشيء.

ومع أنَّ الخلق والنّشوء من مشيئة الخالق، فإنَّ الخلق سابق على النّشوء؛ إذ لا شيء قبله، أمَّا النّشوء فلا يكون إلّا من شيء مخلوقٍ، فينشأ منه خلق آخر، مثل خلق الإنسان من الأرض، وكأنَّه لم يكن منها، وهكذا

---

[168] الواقعة: 95.

[169] التكاثر: 5.

[170] التكاثر: 7.

حال الأزواج المخلوقة إنشاء: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[171].

ومع أنَّ النّشوء مترتَّب وجودًا على ما خلق، فإنَّه لا يكون إلّا وفقًا للمشيئة، التي هي دائمًا سابقة على الشيء، أي: لا شيء ينشأ ويُخلق إلّا من مشيئة الخالق.

ومشيئة المشيء إرادة خَلقيَّة، خَلقت تلك الذّرة، وفجّرتها خلقًا آخر: {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[172].

ولذلك فَخَلقَ الشيء من الشيء وجَعلهِ على الهيئة والصّفة يعدّ نشوءًا من مشيئة الخالق.

والنّشوء تكوين بنائي يُخلق على الهيئة والصّورة بغاية وظيفيَّة، فالأرض التي خُلقت بناءً مكوّرًا، هيّئت لوظيفة الإنبات والتكاثر والنّشوء والارتقاء: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[173].

فالإنبات في الأرض إضافة خلائق، ونشوء حياة، ولفت انتباه إلى ما يشبع الحاجات المتنوّعة والمتطوّرة بغاية بقاء الحياة إلى النّهاية دون حاجة.

فالنّشوء لا يكون إلّا من شيء، أمَّا الخَلق فليس بالضرورة، أي: إنَّ الخلق الأوّل لم يسبقه خلق (خلق من لا وجود)، أمَّا الخلق المترتّب عليه فهو النّشوء (نشوء الشيء من الشيء)؛ ولذلك النّشوء يتعدّد من الخلق الواحد

---

[171] يس: 36.

[172] البقرة: 117.

[173] الشعراء: 7.

أجناسًا وأنواعًا؛ فذلك الكون المرتق خلقًا أصبح أكوانًا منشأة انفتاقًا، وهكذا الأرض التي خُلقت خلقًا مرتقًا؛ فقد كان النّشوء منها متنوّعًا ومتعدّدًا (زوجين) من كلّ شيء.

وبما إنَّ المخلوق قبل أن يُخلق لم يكن شيئًا (لا وجودًا) إذن: فمن الذي جعله شيئًا؟ وهل يمكن الحديث عن شيء لو لم يكن موجودًا؟ وبما إنَّه موجود، إذن: فمن الذي جعله شيئًا؟ أي: لو لم يكن الشيء موجودًا فهل يمكن أن يقال عنه: قد خَلق نفسه من لا شيء؟ ولماذا لا يرتقي التفكير العقلي إلى معرفة من خَلقهُ شيئًا (وجودًا)، ولماذا خلقه شيئًا؟ بمعنى: لماذا لا يرتقي التفكير دراية من المخلوق المشاهد إلى معرفة الخالق الذي لا يشاهد؟

ولذلك فالعقل المتأمّل في الوجود الخلقي يدرك أنَّ وراء كلّ شيء مشيئًا له فلو لم يشئه ما كان شيئًا، وبما أنَّه أصبح شيئًا فهو لم يكن إلّا وفق مشيئة، وهذه تستوجب مقدرة خلقيَّة، وخالق يهيئ المخلوق للخلق قبل أن يخلقه، ومن ثمّ فلا شيء إلّا من مشيء: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شيئًا}[174].

ولأنَّ خلق الشيءِ من الشيء يعدّ نشوءًا، إذن: فلا نشوء إلّا والحياة تملؤه فالأرض لو لم تكن على الحياة، ما كان ترابها صالحًا لخلق الإنسان، وإنباته مثل النبات نباتًا. إنَّه النّبات الذي من بعده لا تخلق الكائنات من الكائنات إلّا تزاوجًا، أمَّا نشوء الأكوان فلم يكن إلّا انفتاقًا.

[174] الأنعام: 30.

الدِّراية العقليّة للانفتاق العظيم:

الدِّراية المام بعلم مُنزّل تنزيلًا مع دراية تامّة بمستهدفاته وعلله وأسبابه وموجباته والحِكم التي مِن ورائه، ولأنَّ الدّراية ناسخة للأميَّة فهي لا تكون إلَّا بأمر السماء، كما هي تمامًا مع محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام الذي أدراه الله بعلم الغيب رسالة سماوية كاملة بيَّنت له سرًّا عظيمًا، وهو: سرّ الانفتاق العظيم نشوء طرأ على الوجود الكوني الملتحم سماوات وأرض، والانفتاق لم يكن علّة خلق الكون، بل سبب تعدّده، فلو لم يكن الرّتق (الالتصاق) ما كان الانفتاق العظيم، ولهذا فالوجود الكوني سابق على نشوء الأكوان، فالكون الذي كان مرتقًا (ملتحمًا) في وحدة وجود، فُتق انفجارًا عظيمًا فانفصل وتمدّد سماوات وأراضين، حتى أصبح أكوانًا: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[175].

ولأنَّ أساس الخلق وجود أوَّل فالنّشوء مترتّب عليه خلقًا، وهنا يكمن الخلاف بين من يرى تلك الذّرة وقد انفجرت كونًا بلا خالق، ومن يرى وجود كون مرتق (ملتحم) وقد انفتق انفجارًا عظيمًا؛ إذ استقل كلّ كون بذاته، بدفعٍ شديد من ضغط الانفتاق العظيم فأصبح كلّ كون على بعد شاسع عن غيره في اتجاه العلو سماوات، وفي اتجاه الدّنوّ أراضين.

أكوان وقد فُتقت فراغًا تملؤه الطّاقة والمادّة حياة مثل ما تملأ معظم كوننا الدّنيوي، الذي أصبح بانفتاقه محاطًا بفراغ عظيم كغيره من الأكوان

[175] الأنبياء: 30.

الأخرى، والفراغ كما يشكّل الحيّز الأكبر في كوننا يشكّل حاضنة لكلّ كون؛ إذ لا احتكاك، ولا تماس، ولا اصطدام، والحركة والتمدّد بلا عوائق.

وكما أنَّ تعدّد الأكوان دراية معلوم قرآنًا (سماوات وأراضين) فقد أصبح معلومًا لدى كثير من علماء الفيزياء، ومع أنَّنا نعلم أنَّ الأكوان هي سماوات شداد، غير أنَّنا نجهل ما هي عليه إذا ما استثنينا كوننا الدّنيوي الذي لا نعلم منه إلّا شيئًا قليلًا: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}[176]، أي: بُنيت فوق الأرض الدّنيا سبع سماوات مُحكمات؛ ولذلك فالبناء الذي حدث فوق الكون الدّنيوي هو بفعل الانفتاق العظيم الذي زلزل الكون المرتق وجودًا، فجعله أكوانًا.

ولأنَّ السّماوات السّبع تعلو الأرض التي نعيش عليها حياتنا الدّنيا، فهي أكوان طباق، أوَّلها كوننا الدّنيوي، وفوقه ستّة أكوانٍ؛ ممّا جعل أرضنا الدّنيا وسماءها كونًا منفصلًا (مفتقًا) عن الأكوان الستة التي تعلوه.

فقوله: (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) يدلّ على الأرض الدّنيا وما فوقها من سماوات، ممّا يجعل الكون الأوّل الذي نحن جزء فيه هو: (السّماء والأرض معًا) وإذا أردنا أن نعد السّماوات السّبع فهي لا تعد إلّا أكوانًا (أرض وسماء)، فالكون الأوّل (أرض دنيا، وسماء دنيا)، وفوقهما الكون الثّاني: (أرض وسماء)، ثمّ تأتي الأرض والسّماء الثّالثة: (كون ثالث)، وهكذا تتعدّد الأكوان من

[176] النبأ: 12.

الكون الأوّل إلى الكون السّابع سماوات وأراضين: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[177].

ولذا؛ فعندما يوجّه القول لأهل الأرض تذكر السّماوات السّبع، ولكن عندما يوجّه القول لأهل الكون الدّنيوي: (السّماء والأرض الدّنيا)، تصبح السّماوات من فوقهم ستّ سماوات (أكوان): {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[178]. والسّبعة طرائق هي (السّبع الشداد) أي: السّماوات السّبع، ومن ثمّ ينبغي أن يؤخذ المعني مفهومًا، وليس لغةً.

ومن هنا فقوله: (خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) الخطاب موجّه لأهل الأرض الدّنيا، الذين لا فواصل بينهم وبين السّماء الدّنيا، التي تفصلهم عن الكون الثّاني: (أرض وسماء)، والذي هو الآخر ينفصل عن الكون الثّالث أرضا وسماء، وهكذا هي الطرائق سبعة أكوان.

والأكوان السّبعة بأسباب الانفتاق العظيم نشأت مرتّبة طَبَقًا فوق طبق، من السّماء الدّنيا إلى السّماء السّابعة، ولا اختلاف في طوابقها المملوءة فراغًا واسعًا طاقة وحيويّة: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[179]؛ فالذي خلق سبع سماوات (أكوان) خلقها من لا شيء؛ إذ لا شيء يكون إلّا مخلوقًا.

وعليه:

فالسّماوات الطّباق: (أكوان) كانت مُرتقة (مُطبِقة) بعضها على بعض، ولا فواصل فراغية بينها، ومع أنَّها مُرتقة، فإنَّها تعدّ وجودًا هائلًا،

---

[177] الطلاق: 12.

[178] المؤمنون: 17.

[179] الملك: 3.

فالكون المرتق (الملتحم) كما يتمدّد شدّة حرارة، وشدّة برودة يتمدّد بينهما اعتدالًا مناسبًا للحياة، فخلقت الأزواج من تلك البيئة المعتدلة، وهي التي أصبحت أرضًا دنيا بعد هبوطها وهبوط آدم وزوجه خليفة فيها: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[180]، أي: بعد الانفتاق العظيم هبطت الأرض، وهبط على ظهرها الخلق الأوّل: (أجناسًا وأنواعًا)، وفي المقابل ارتفعت السّماء الدّنيا، ومن فوقها ارتفعت بقية السّماوات السّبع الطّباق؛ فكانت أكوانًا محاطة بالفراغ العظيم الذي هيّأ الحركة، ومهّد سبل التمدّد الكوني بين نهاية وما لا نهاية: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَأَنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[181].

ومع أنَّ علماء الفيزياء يرون خَلق الكون من انفجار تلك الذّرة التي وصفوها بتناهي صغرها، فإنَّه لا أحد منهم ولا من غيرهم شاهد تلك الذّرة المشار إليها بالانفجار قبل أن تنفجر، فهم فقط اكتشفوا أثر الانفجار، ولكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟ لا أحد يعرف.

ولأنَّه لا إجابة، إذن: في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع كلّ شيء ممكن.

ولهذا فنحن نرى: انفجار الأكوان (سماوات وأراضين) حدث من الكون المفتق انفجارًا، فكان التمدّد متسارعًا من أجل الوجود بداية ونهاية.

---

[180] البقرة: 30.

[181] الذاريات: 47 . 49.

وحتى لا يأخذ أحد عنوان الانفجار العظيم تحت أيّ علّة، ليسوّقه وكأنَّ الشكّ لا يلاحقه، فليقارن بين وجود ما وُصف بالذّرة المتناهية في الصّغر، وهي لم تُر من أحد على الإطلاق، ووجود كون ملتحم أخبر عن وجوده قرآنًا، ثمّ انفتق انفجارًا، فإيّهما أقرب للعقل: شيء لم يشاهد ويقال عنه: قد انفجر، أم شيء أخبر عن وجوده، ثمّ انفتق حقيقة؟ {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[182].

ولأنَّ قاعدة المنطق العلمي تقول:

وراء كلّ مفعول فاعل

والانفجار العظيم مفعول

إذن: وراء الانفجار العظيم فاعل

ولأنَّ وراء الانفجار العظيم فاعلًا؛ فكيف للكون بخلق نفسه من لا شيء، ومن وراء انفجاره فاعل؟ ثمّ كيف يصدّق قول من يصف تلك الذّرة التي لم يرها، ولا يصدّق قول من أوجد الكون مرتقا، ثمّ فتقه يتمدّد في تسارعه بين مشاهدة وملاحظة قابلة للتقصّي العلمي الدّقيق؟

ومع أنَّ علماء الفيزياء والفلك يبذلون الجهد من أجل معرفة ما أطلق عليه: (الانفجار العظيم)، فإنَّهم حتى الآن يجهلون معظم حقيقته، فالانفجار لا شكّ أنَّه عظيم هائل، ولكن انفجار ماذا؟ فهل هو انفجار ما تمَّ وصفه بتلك الذّرة، أم إنَّه انفجار شيء آخر؟ وكيف يُسلّم بأنَّه انفجار ذرة، ولم يقدّم الدّليل على وجود الذّرة؟ وهل كان للذّرة مكان وجود قبل انفجارها

[182] الأنبياء: 30.

حتى توصف بأنَّها ذرة؟ أم إنَّها ذرة في غير مكان ولا زمان؟ وإذا كان التحدث عن الذّرة هو تحدث عن وجود؛ فهل يكون الوجود في غير مكان وزمان؟ وهل يمكن أن يكون الانفجار لو لم يكن ذلك المنفجر سابقًا على انفجاره؟

وبما أنَّ الانفجار الكوني حدث لاحقًا على وجود الذّرة المتناهية في الدّقة، فهل يمكن أن يتحقّق الانفجار لو لم يكن المكان والزّمان سابقين عليه ومحتويين له وجودًا؟

ولأنَّ البحاث لم يقفوا على لحظة الانفجار العظيم، ولا على الزَّمن الذي كانت فيه الذّرة قبل انفجارها، إذن: كيف لهم بوصف المنفجر بالذّرة وهم لا يعلمون حقيقة وجودها؟

ولأنَّه لا يقين (لا حُجّة)؛ فلِمَ لا يلتفتون إلى رتق السّماوات والأرض وانفتاقها أكوانًا؟ فلو التفتوا بحثًا لوجدوا أثرًا شاهدًا، وبخاصّة أنَّهم متيقّنون من أنَّه لا إمكانيَّة للوقوف عند لحظة الانفجار العظيم، واللحظة التي تسبقه.

وعليه:

ألا يكون من الأفضل أن ينطلق العلماء الفيزيائيّون في سعيهم البحثي من شيء ذُكر تفصيلًا عن الكون الذي يأملون معرفته، أم إنَّه من الأفضل أنْ يتجاهلوه، ويتمسّكوا بأحكام لم يتّفق عليها حتّى علماء الفيزياء أنفسهم؟

ثمّ ألا يكون من الأفضل أن يسعى علماء الفيزياء والفلك بحثًا علميًّا في شأن الكون من شيء مخلوق، أم من الأفضل أن ينطلقوا من شيء غائب بفعل الانفجار الذي لا يسمح بالتجاوز إلى ما قبله؟

أي: إذا تمسّك علماء الفلك والفيزياء بتلك الذّرة المفترضة، فكيف لهم بها ولا إمكانيَّة لبلوغها بأسباب الانفجار الذي يحول بين جهود الباحثين وما يُظنّ أنَّها النقطة أو الذّرة المتناهية في الصّغر؟

ومن ثمّ فكيف يسلّم بعض من علماء الفيزياء أنَّ الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له ولا يسلّمون بمن قال: أنا الخالق، الذي خلق كلّ شيء؟ أي: كيف ينسبون فعل الخلق لمن لم يقل عن نفسه أنا خالق، ولا يقبلون نسبه لمن قال: أنا الخالق؟ فالخالق لم يُخفِ نفسه حتى يدّعي البعض بما ادّعى به، أو أن يَنسُب شيئًا إلى ما لا ينتسب إليه.

ولأنَّ القاعدة العلميَّة تقول:

كلّ شيء مخلوق من ورائه خالق.

والانفجار شيء.

إذن: الانفجار مخلوق ومن ورائه خالق.

أمَّا الذين يعتقدون أنَّ الكون قد خُلق من غير خالق، فهم لا يجيبون عن السؤال: كيف انفجر الكون؟

ولذلك فهم يتحدّثون عن خلقه من لا شيء وبغير خالق، ومن ثمَّ سيظل السؤال يلاحقهم، كيف خُلق الكون من غير خالق؟ وكيف انفجر بلا أمر لانفجاره؟ وأين انفجر حتى أصبح كونًا عظيمًا من تلك الذّرة المنفجرة؟ وكيف لذلك المتناه في الصّغر أن يلد كونًا متناهيًا في الكبر؟

أمَّا القول بانفتاق الكون ورتقه أكوانًا فهو يعتمد على وجود المخلوق بفعل الخالق، الذي لو لم يكن ما كان الكون ولا انفتقت منه أكوانًا.

الدِّرايةُ بالانفتاقِ العظيم:

انفتاق الأرض دراية لا يعلمها إلَّا فاتقها جلَّ جلاله الذي اعلم محمَّد بذلك الانفتاق قرآنًا؛ إذ بعد حدوث الانفتاق العظيم هبطت الأرض الدّنيا بالقوَّة الفراغيَّة حتى استقرّت اعتدالًا جاذبيًّا في فلكها المتوازن، وصعدت السّماء بذات القوَّة المنفجرة تتمدّد إلى النّهاية، فشكّلتا كونًا دنيويًّا تملؤه الحيويّة والحياة: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[183].

ولأنَّ أمر فتق السّماوات والأراضين بيد الخالق، وأنَّ فتقهما جاء قبل هبوط الأرض إلى الدّنيا، إذن: فلا أحد يعلم الكيفيَّة التي بها فتقت السّماوات والأرض، ولا الزّمن الذي فيه فتقت، ولا الصّفة التي جاء عليها الانفتاق العظيم، إلّا الذي أمر بفتقها سماوات وأراضين، ولا أحد يعرف إلّا من أوحي إليه بها وكذلك الأزواج التي هبطت عليها.

ولأنَّ الزّوجين: (آدم وزوجه) المستخلفين في الأرض لم يتركا لنا شيئًا من هذا فلا حُجّة بين أيدينا، وكذلك لم نعثر حتى الآن على اثرهما لنقول: هذا أثر الأنسان الأوّل، الذي قالوا عنه: قد تطوّر بعد أن كان شبيه قردٍ، ولكن الإجابة العلميَّة وفقًا للمعلومة المتوفّرة بين أيدينا حُجّة هي: (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

---

[183] الأنبياء: 30.

ولذا فُتقت السّماوات والأراضين فكانت أكوانًا، وفي كوننا علماء الفلك والفيزياء يبحثون ويتقصّون، ومع ذلك لم يعلموا إلّا قليلًا، ومن ثمّ فكيف لنا بمعرفة أسرار الأكوان الأخرى، ونحن لم نعلم من أسرار كوننا إلّا قليلا! {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[184].

ولأنَّها أكوان مستقلّة بذواتها فإنَّها أكوان مخلوقة على الخصوصيَّة والنّوعيَّة التي تُميّز كلّ كونٍ عن غيره، وهذه من أسرار الخالق الذي يعلم ما لا نعلم: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[185].

ومع أنَّ السّماوات والأراضين كانت ملتحمة كونًا لا فواصل بينها، فإنَّ الأرض كانت صالحة لحياة الخلق الأوّل قبل أن تنفتق أرضًا دنيا، وهناك كان نشوء أبينا آدم مثل نشوء النّبات: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا}[186]، وهناك أيضًا تمّ اصطفاؤه نبيًّا للخلق الأوّل: (الملائكة والجنّ والإنس)، وهناك كانت جنّة الحياة الأوّلى؛ حيث تمام النّعمة ورغد العيش، وفي المقابل كانت هناك المعصية: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[187]. أي: إنَّ معصية آدم وزوجه لم تكن على الأرض الدّنيا، بل كانت على ذلك الكون المرتق في وحدة وجود عظيم، أي: في جنَّة عرضها كعرض السّماوات والأرض: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[188].

---

[184] الإسراء: 85.

[185] الواقعة: 61.

[186] نوح: 17.

[187] طه: 121.

[188] الحديد: 21.

ومن هذه الآية يمكن استقراء نهاية الأكوان التي فُتقت بعد رتق أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه مُرتقة، وهناك ستكون الجنّة التي يأملها المؤمنون: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا أَنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[189].

إذن: فالخالق وعد بعودة الخلق إلى ما كان عليه خلقًا أوَّلًا، ومن ثمَّ ستطوى الحيّزات الفراغيّة العظيمة التي فصلت الأكوان، وجعلت منها طرائق سماويّة وأرضيّة، وسَتُرتق من جديد وجودًا عظيمًا (جنّة ونارًا) ولكلّ ثمار عمله: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[190].

ومع أنَّ الإنسان الأوّل خُلق في أحسن تقويم، وكان في جنّة غير منقوصة، فإنَّه لم يصمد أمام الوسوسة والإغواء؛ فأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها؛ فأهبط به وزوجه والجنّ على ظهر الأرض من الحياة العليا إلى الحياة الدّنيا: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[191]. فقوله: (اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) المقصود هما: الإنس والجن، اللذان أصبح بينهما العداء جزءًا من الحياة الدّنيا.

ولأنَّ الإنس الأوّل: (آدم وزوجه) يشكّل طرفًا رئيسًا في مخالفة أمر الله، وأنَّ الجنّ طرف رئيس أيضًا في المخالفة، فكان حكم الهبوط عليهم بلا استثناء: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

---

[189] الأنبياء 104.

[190] الأنبياء: 104.

[191] طه: 123.

إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[192]؛ فهنا جاء القول موجّه للخطّائين، الذين تمّ تبليغهم بأنَّ الأرض هي نصيبهم في الحياة الدّنيا، وكأنَّ المقصود: خذوا الأرض فهي قد مُنحت لحياتكم، لكم فيها مستقر ومتاع إلى حين، وستظلون عليها ما حييتم، وستموتون عليها، وستحيييون منها بعثًا بين جنّة ونار (الكل وفق عمله).

ولإنَّ القول جاء أمرا حاسما بأنَّ وجود الخطّائين في الكون المرتق (الملتحم) أصبح غير ممكن، والإبعاد عن الجنّة لا مفرّ منه، فالجنّة التي لم يقدّر العيش فيها من قِبل من خُلق خلقًا كما هي خُلقت فلا بدّ من خروجه منها، فكان الخروج هبوطًا للأرض ومن عليها، وكان الدّرس، ولعلّه يكون الموعظة.

ولذلك فُتقت السّماوات والأراضين، وأهبطت الأرض الدّنيا بالحياة الدّنيا وعلى ظهرها الأزواج التي أنبتت منها وخُلقت عليها، وعلى رأسها الإنس والجنّ، ممّا جعل الوسوسة والإغواء بين بني آدم نار فتنة حتى اقتتلا.

والتساؤل: كيف يفكّ اللبس بين مفهوم خلق آدم في الجنّة وخطيئته هناك، وخلقه من تراب الأرض؟

الأرض التي نشأ آدم وزوجه منها كانت في زمن الرّتق مع السّماوات قطعة من الجنّة؛ ولذلك فطينة خلق آدم وزوجه هي من طين الجنّة قبل أن تنفصل الأرض عنها، وتصبح دُنيا (سفلى)، ولكن بعد أن أهبط بهما وبمن معهما من أزواج، لم تبق الأرض قطعة جنّة؛ ولذا فآدم وزوجه لم يخلقا من الأرض بعد انفتاقها من ذلك الوجود الأوّل (سماوات وأراضين)، بل خُلق من

[192] الأعراف: 24، 25.

الأرض قبل الانفتاق العظيم: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}[193]. ولا شكّ أنَّ البقاء في الجنّة بقاء في النّعيم، أمَّا البقاء في الأرض بعد انفتاقها من السّماوات أصبحت دنيا، ولم تعدّ عليا كما كانت جنّة.

إنَّ الأرض بعد هبوطها والأزواج التي على ظهرها سُلبت من نعيم الجنّة، ولم يترك لها إلّا شيء من الماء الكفيل بحياة الأزواج المتكاثرة في الحياة الدّنيا: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[194]. أي: إنَّ السّماوات والأرض عندما كانت مُرتقة في وحدة الوجود العظيم كانت قطعة جنّة، ولكن بعد أن فُتقت فلم يفتق معها من نعيم الجنّة إلّا الماء، الذي يحفظ الأحياء على الحياة الدّنيا: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

ولأنَّ نشوء الإنس نشوء غير كامل فكانت الخطيئة من الإنسان الأوَّل: (أصل السّلالة البشريّة)؛ ولذلك لو أخذ آدم بأمر النّهي، وبقي ممتنعا عن الأكل من تلك الشّجرة، لكانت حياته مثل خلقه في النّعيم: {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[195]، ولكن التساؤل:

متى بدأت الحياة على الأرض؟

---

[193] طه: 117.

[194] الأنبياء: 30.

[195] طه: 121.

الفيزيائيّون يقولون: لقد بدأت الحياة على الأرض بعد أن بردت من حرارة ذلك الانفجار العظيم فتكوّنت بحارها وجبالها وسهولها وغلافها الجوي، حتى أصبحت جاهزة لاستقبال الحياة، وقد نادى بعض العلماء الفيزيائيين وعلى رأسهم العالم الألماني ريختر richter 1870، والعالم هلمهولتز Helmholtz 1894: إلى أنَّ الحياة انتقلت إلى الأرض من كوكب آخر عن طريق بذور نبات، أو حويصلات جراثيم الميكروبات، أو الأطوار ذات البيات، أو السّكون في كائنات أخرى، أو أنَّ أحد النيازك قد حمل كائنات حيَّة لكوكب الأرض[196]، وهناك من يرى أنَّ الأرض مرّت بزمن ارتفاع درجات الحرارة، ثمّ حلول العصر الجليدي، ثمّ أخيرًا ظهر الإنسان بعد أن تمت تهيئة ظروف حياته[197].

وهنا تكمن حقيقة مفادها: أنَّ دلائل تشير إلى وجود علاقة بين الأرض وكواكب أخرى، وهذا يؤكّد أن الأرض كانت غير مستقلة عن غيرها من خلائق الكون (السّماوات والأرض)، أي: إنَّ الكائنات والنباتات والنيازك السّماوية التي يعتقد أنَّها قد هبطت على الأرض تعدّ مؤشرًا ودليلًا على أنَّ الأرض والسّماوات كانتا رتقًا.

ولذلك فالأرض لو كانت نتاج الانفجار العظيم ذا الحرارة العالية كما قال عنها علماء الفيزياء والتي لا توصف بأيّة حرارة نعرفها، لكانت الأرض رمادًا غير صالح للحياة: (النَّار لا تترك إلّا الرّماد)، ولكن لأنَّها كانت مرتقة

[196] http://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/204.html

[197] Cosmology: The Science of the Universe. Second edition. Edward Harrison. Cambridge University Press, 2000

في السّماوات، ثمّ فتقت فأهبط بها وبمن على ظهرها إلى الحياة الدّنيا فأصبحت الحياة على الحاجة بعد أن كانت على النّعيم إشباعًا.

ومع أنَّ علماء الفلك والفيزياء يتحدّثون عن الأرض كونها نتاج انفجار تلك الذّرة، وليست نتاج الانفتاق العظيم الذي سبق علمه ما اكتشفه علماء الفلك والفيزياء، فإنَّ الأرض لو كانت على تلك الحرارة الموصوفة شدّة لكانت عدمًا (حيث لا حياة) وهذه لا تكون صفة الأرض التي خلقت منها الأزواج: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[198].

ومع أنَّ الإنسان الأوّل خُلق من الأرض فإنَّه لم يُخلق من أرضٍ رمادٍ (عدم)، ولا من الأرض الدّنيا، بل خُلق من الأرض العليا التي ترابها وطينها وصلصالها جنّة؛ ولذلك فحياة الإنسان الأوَّل كانت حياة عليا، أمَّا الحياة على الأرض الدّنيا فهي الحياة السفلى.

أي: بمقارنة ذلك النَّعيم مع ما يتوافر على سطح الأرض الدّنيا فلا مقارنة، وهنا تكمن سُفليَّة الحياة الدّنيا، وفي المقابل ترتقي حياة النّعيم وتعلو.

ولذلك في الأرض العليا: (المرتقة مع السّماوات) كان نشوء الحياة فيها من كلّ زوجين اثنين، وقبل الزّوجين كان الملائكة والجنّ من خلائق الجنّة، ولكن نتيجة الإغواء الذي شبّ بين الإنس والجنّ أهبط بهما والأرض؛ إذ أصبحت أرضًا دُنيا بعد أن كانت أرضا عليا، وظلّت الملائكة في السّماوات العليا غير مخالفة لأمر الخالق، وهي لا تتنزّل للأرض إلّا لأمرٍ: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ

[198] يس: 36.

وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ}[199]، أي: كلَّما لزم أمر تنزّلها تُنزل: {يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}[200].

فالأرض بعد أن أصبحت دُنيا قلّ شأنها عمّا كانت عليه؛ وذلك بفقدانها صفات الجنّة التي لم يعدّ منها شيء، إلّا بعضًا من الماء: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[201]؛ فالأرض خُلقت وهيأت للحياة العليا، ثمّ فُتقت بما هُيأت به للحياة الدّنيا، فكان الانفتاق العظيم انفتاق أكوان (سماوات وأراضين) وهو النّشوء العظيم، الذي به تمدّد الكون متسارعًا في اتساعه، وأنَّه لمن الصّعب معرفة أسراره إلّا مؤشّرات.

وعليه:

فإنَّ أساس الخلق هو: كون مُرتق، ثم كون مُفتق، وفي كلتا الحالتين الخالق واحد فنحن بني آدم لا نعلم إلّا ما أعلمنا به الخالق وحيًا موحى، ومع ذلك لم يُظهرنا على ما أعلمنا به إلّا بمقدار، ومن ثمّ فكلّما اكتشفنا شيئًا تمكنّا من معرفة حقيقة ذلك الشيء والدراية به، وفي المقابل لم ننتج حقيقة، فالحقيقة (وراء كلّ مخلوق خالق)؛ ولذلك فمنتج الحقيقة هو خالقها، أمَّا مكتشفها فهو المتعرّف عليها والذي بشئونها يدري، وبين هذا وذاك قد يظهر مدّعيها وهو من لم يكن منتجًا لها ولا متعرّفًا عليها.

---

[199] القدر: 4.

[200] آل عمران: 124.

[201] الأنبياء: 30.

الدّرايةُ بالشيء ونشوؤه:

إنَّ التحدّث دراية عقلية عن الخلق لا ينفصل عن التحدّث عن الخالق: (وراء كلّ مخلوق خالق)، ولكن التحدّث عن النّشوء تحدّث عن المخلوق وكيفية وجوده وأحواله، وما يطرأ عليه من تغيّرات.

ولأنَّ الخلق صُنع الخالق، فهو السّابق على كلّ شيء؛ حيث لا وجود لشيء إلّا خلقًا ونشوءًا: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[202]، وهنا يكمن الإعجاز ولا استثناء.

فالحياة مع أنَّها قيد: (بداية ونهاية)، فإنَّها وسعت الوجود الذي يستوعب كلّ شيء؛ حيث لا استثناء لشيء، والشيء إن لم يعرّف جنسًا ونوعًا وصفة وحجمًا وخاصيّة، فلا يعد إلّا نكرة، تحتويه الحياة ولا يحتويها، فالحياة خَلق يستوعب الوجود: (كلّ شيء) سوأ أكان الشيء مادّة، أم طاقة، أم روحًا، أم معلومة، ولا يكون الشيء شيئًا إلّا في حيّز الوجود، ومع ذلك ليس بالضّرورة أن يكون الشيء ماثلًا أو خاضعًا للملاحظة والمشاهدة، فهناك من المعجزات ما لا نعلمه.

ولهذا فالشيء وجود، وإيجاده مشاهدًا لا يجعله في حاجة لمن يثبت وجوده، وهذا الإثبات يتعارض مع مقولة الفيلسوف ديكارت: (أنا أفكر أنا موجود) أي: بما إنَّك موجود فلماذا تشكّ في وجودك؟ وكيف لك أن تفكّر لو لم تكن موجودًا؟ وهل تعتقد أنَّ الشيء الذي لا يفكّر لا يعدّ موجودًا؟

---

[202] الزّمر: 62.

ومن ثمّ فعلينا أن نميّز بين: (الشيء) غير المقيد بِكمٍّ أو هويَّةٍ، ولم يكن خاضعًا للمشاهدة، ولا يقتصر وجوده على ما خُلق، وبين (كلّ شيء) وهو المحدّد، الّذي قد خُلق ويمكن وصفه، والتحدّث عنه، ولتبيان ذلك، فأيهما أكثر دلالة، أن تقول: الحمد لله؟ أم تقول: الحمد لله ألف مرّة؟

بالتأكيد قول: (الحمد لله) غير محدّد بكمّ، ولكن قول: (الحمد لله) ألف مرّة: قول مقيّد، وكأنَّ المعنى يحمل في مضمونه لا حمد بعد الألف مرّة، ومن ثمَّ فإيّهما أكثر أن تحمد الله بلا حدود، أم أن تحمده ألف مرّة؟ فهكذا يكون الفرق بين الشيء الذي لا يحصى، وكلّ شيء يحصى وإن صعب عدّه وإحصاؤه في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[203].

وعليه: فلا شكّ أنَّ كلّ شيء على قيد الحياة هو شاهد على وجوده؛ كونه يشغل حيّزًا، حتى وإن كان الحيّز لا يُرى بالعين المجرّدة؛ ولذلك فكلّ شيء يعني: كلّ ما يخُلق ويدرك ويشغل حيّزًا حتى وإن كان حيّزًا ذهنيًّا ولتكن: (فكرة).

ولذلك فكلّ شيء على قيد الحياة يعدُّ وجودًا (خلقًا ونشوءًا)، فنحن بني الإنسان الأوّل الذي خُلق في أحسن تقويم، لو لم نكن على قيد الحياة وجودًا ما تحدثنا عن الحياة التي نحن قيد وجودها.

---

[203] مريم: 93 . 95.

ومع أنَّ الكون شيء، فإنَّه يحتوي في أحشائه أشياء متناهية في الصّغر وأشياء أخرى متناهية في الكبر: (خلقًا ونشوءًا)، وهي التي عُرّفت فيزيائيًّا بـ(الشيء واللاشيء)، ولكن بما أنَّ الكون على قيد الحياة، إذن: فمن ورائه محيي (خالق)، وهنا يتّضح الخلاف بين من يرى الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له، ومن يراه مخلوقًا.

ولأنَّ الكتابة عن كلّ شيء غير ممكنة فلنأخذ مثالًا واحدًا على شيئين في وقت واحد، وهما (الجنّة والنَّار)، فالله الخالق خلق الجنّة، والله الخلّاق يخلق وسيخلق ما لا نعلم داخل الزّمان وخارجه؛ فقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[204]؛ تدلّ على أنَّ الله قد خلق، وهو يخلق، وسيخلق؛ فقوله: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) تعود على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وقد دخلوا الجنّة، وكذلك تعود على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وهم في الزّمن الآن أموات في طريقهم إليها، وهي كذلك تدلّ على الذين سيلحقون بهم بما عملوا ويعملون من الأعمال الحسنة.

ولذا فلو قلنا: إنَّ الجنّة مخلوقة، وهي في الوجود الحي، لقال البعض: وكيف تثبت لنا ذلك دراية؟

[204] البقرة: 82.

قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[205].

جاءت هذه الآية بصيغة الفعل المتحقّق (وَنَادَى)، ولم يقل: ينادي أو سينادي، وحدّدت هذه الآية من هم الذين نادوا؟ قال: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ)، وهذا يثبت أنَّ الجنَّة والنّار مخلوقتان (متحقّقتان)، ومع أنَّنا لم ندرك وجودهما، فإنَّه علم اليقين دراية، وإلّا كيف نعترف بأنَّ السّماوات والأرض كانتا رتقًا وفُتقتا؟ وكيف نعترف بأنَّ آدم خُلق من الأرض وهي مرتقة مع السّماوات جنّة، ولا نعترف بخلق الجنّة أصلًا؟

ولأنَّ الجنّة والنَّار هما مكانا الحياة رحمة أو عذابًا؛ إذن: فهما شيئًان عظيمان؛ ولذلك نادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار: (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا)، إنَّه خبر يقيني؛ حيث لا شكوك، فأصحاب الجنّة أحياء فيها يرزقون وقد وجدوا ما وعدهم الله به من نعيم، ولكنَّهم يودّون أن يعرفوا: هلّ وجد أصحاب النّار ما وعدوا به حقًّا؟ فأجابهم أصحاب النّار بقولهم: (نَعَمْ)؛ (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ).

وفي المقابل قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}[206]، فقول أصحاب النّار: (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ

---

[205] الأعراف: 44.

[206] الأعراف: 50.

اللَّهُ)؛ تدلّ على ما يعانيه أصحاب النَّار من ألم وشدّة وعذاب، كما أنَّها تدلّ على أنَّ أصحاب النّار قد عرفوا أنَّ الماء والنّعيم متوافر عند أهل الجنّة، أي: وهم في جهنّم تيقّنوا أنَّ كلام الله هو الحقّ، فما قيل لهم في حياتهم الدّنيا عن النَّار وجدوه حقًّا (عين اليقين)، ولأنَّهم وجدوه حقًّا، إذن: فمن دون شكّ أنَّ أصحاب الجنّة قد وجدوا ما وعدهم الله حقًّا، ولهذا قال أصحاب النّار لأصحاب الجنّة: (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) فكانت إجابة أصحاب الجنّة: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).

هذه الآيات نزلت تتحدّث عن واقع، وتستشهد به، ولم تتحدّث عن مثالٍ، أو أمنية من الأمنيات الخاصّة.

ولهذا فالله قد أعدّ جنّات الخُلد إعجازًا: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[207]، فقوله: (أَعَدَّ) تعني: أنَّه خلق، وهيّأ جنّات متنوّعات، مملؤة بما تشتهيه الأنفس ممّا لذّ وطاب.

ولأنَّ الله قد أعدّ الجنّات فهو قد خلقها، ومن ثمّ فالجنّة مخلوقة، حتى لا يظنّ الظَّانون أنَّهم موعودون بشيء لم يخلق بعد.

ولأنَّ الله قد خلق الجنّة قال: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}[208]؛ فكلمة: (وَأُدْخِلَ) تدلّ على الماضي المتحقّق، أمَّا مجمل قوله: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيها)؛ فهي المثبتة للمكان الذي أدخل

---

[207] التوبة: 89.

[208] إبراهيم: 23.

إليه الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وهو الجنّات المتنوّعة بما فيها من نعيم عظيم[209].

إذن: فلا شكّ أنَّ أصحاب الجنّة يساقون إليها، وأصحاب النَّار يساقون إليها: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا}[210] وفي المقابل سيق المتقون إلى الجنّة زُمرًا: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا}[211].

وعليه: فالجنَّة لو لم تكن شيئًا فهل لنا بالتحدث عنها؟ وكذلك النَّار لو لم تكن شيئًا فهل لنا بالتحدث عنها؟

ولأنَّ السّماوات والأرض كانتا رتقًا، وأنَّ الإنسان الأوّل خُلق هناك خَلقًا زوجيًّا، وأنَّ (آدم وزوجه) خُلِقا من الأرض الجنّة وأنشئا فيها وهي مرتقة مع السّماوات، وأنَّ الزّوجين اللذين خُلقا من طينها قد خالفا وأكلا من المنهي عنه، وأنَّ خالقهما قد أخرجهما من الجنّة، ثمّ أهبطا منها والأرض إلى الحياة الدّنيا، إذن: ألا تكون الجنّة بالنّسبة إلى آدم وزوجه عين يقين، وتكون بالنّسبة لنا علم يقين؟ فهل لا زال هناك شكّ أنَّ الجنّة لم تكن مخلوقة على قيد الوجود؟ {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[212].

---

[209] عقيل حسين عقيل، بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، 2015م، ص 213 . 217.

[210] الزمر: 71.

[211] الزمر: 73.

[212] البقرة: 35، 36.

أم هل هناك من يظن أنَّ الجنة لم تخُلق ولم يسكنها آدم وزوجه مع الملائكة والجنّ؟ ولم يهبطا منها ومن معهما وما معهما إلى الحياة الدّنيا؟ أم إنَّ وجود الجنّة وما جرى فيها مع الخلائق حقيقة، ولكنَّها قد ألغيت؟ وكيف يُقبل القول بإلغائها والخالق قال: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[213].

وعليه: فالأرض الجنَّة لم تلغ من ذلك الخلق العظيم المرتق، بل فتقت وأصبحت في كون من الأكوان التي فُتقت سماوات وأراضين؟

ولأنَّ الجنّة قد خُلقت مع ذلك الشيء المرتق فهي حقيقة، وشواهدها على الواقع حقيقة، وإلّا هل هناك من يكذّب أنَّ ورق الجنّة لم يُخصف على آدم وزوجه بعد أن ارتكبا الخطيئة؟ {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ}[214]، أم هل هناك من يظن أنَّ قصّة الجنّة وخلق آدم وزوجه لم تحدث حقيقة؟ فإن ظنّ، إذن: فماذا يبقى له ليقول: أنا من سلالة آدم الذي خلقه الله في أحسن تقويم؟ ثمّ، إن لم يسلّم بذلك فما هي الحُجّة التي بين يديه لتؤخذ حُجّة إثبات بعدم خلق الجنّة التي فيها خُلق الملائكة والجنّ والإنس وما لم نعلم إعجازا؟ ولكن إن لم يكن هناك شكّ لدى البعض، إذن: فلا شكّ دراية أنَّ الجنّة شيء مخلوق وخُلق آدم وزوجه فيها ونشآ من ترابها، وأنَّهما أهبطا منها، وأنَّ الأرض الدّنيا بلا شكّ كانت مرتقة مع السّماوات، ثمّ فتقت أكوانًا.

---

[213] الأنبياء: 30.

[214] الأعراف: 22.

دّراية النّشوء البشري:

الدِّراية العقلية تعني: التَمكُّن المعرفي بالحجّة المطلقة والمثبتة لأصل الأشياء قبل أن تكون أشياء، أي: دراية الإنسان بأصل الخلق وخالقه؛ ولذا فأصل الخلق البشري من خَلقِ الكون، أي: لو لم يكن الكون لتكون الأرض منه، ما خُلق الإنسان من ترابها: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[215]؛ فالخلق من تراب على الرّغم من اختلاف المعتقدات والمعارف العلمية، فلا أحد يشكّ فيه، وبخاصّة بعد اكتشاف عناصر خلق الإنسان التي هي من مكوّنات الأرض ترابًا، والتي كان أكثرها نسبة الأكسجين 65%، ثمّ الكربون 18%، ثمّ الهيدروجين 10%، وتوزّعت بقية النّسب تكوينًا في جسم الإنسان[216]؛ ولذلك فلم يبق شيء يمكن أن يكون مكوّنًا لجسم الإنسان إلّا وهو عنصر في الأرض، أمَّا أمر الرّوح فهي لم تكن من تراب، ولم تكن من مكوّنات الجسم الإنساني، بل هي المدخلة عليه إدخالًا: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[217].

ومع أنَّ أصل النّشوء البشري من تراب، فإنَّ الخلق البشري لم يكن ترابًا، بل كان شيئًا على المعرفة الممكّنة من: (التذكّر، والتدبّر، والتفكّر)، ومن هنا فالإنسان يتطوّر معرفة وليس جسدًا، فالجسد أُنبت من الأرض نباتًا:

---

[215] الروم: 20.

[216] http://alelmwalmarefa.blogspot.com.eg/2014/04/blog-post_21.html

[217] الإسراء: 85.

{وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا}[218]، فالآية تعود على البشر، ولأنَّكم يا بني آدم من ترابها؛ فأنتم نشأتم من الأرض وكأنَّكم نبات من نباتها، وقوله: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ) أي: أنشأكم من الأرض نشأة، ولأنَّ خلق الإنسان من الأرض، قال: (أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا) ولم يقل: (إنباتًا)؛ ذلك لأنَّ (النبات) من الأرض، أمَّا (الإنبات) فمن خارجها؛ ولأنَّكم يا بني آدم من الأرض؛ فكان نشوؤكم منها نباتًا.

ولذلك فهل يمكن لأحدٍ أن يقول: إنَّه لم يكن من تراب الأرض وعناصر تكوينه تشهد عليه ترابا؟ وإذا كان الأثر خير دليل لإثبات براءة أو إدانة صاحبه، إذن: فلا شكّ أنَّ عناصر خلق الإنسان من تراب خير شاهد على نشوئه منها.

وعليه: تَطوّرَ الوجود من لا شيء يُدرك إلى شيء مُدرك فكان ما يشير إليه الفيزيائيّون بالذّرة أو النّواة الأولى، ثمّ الانفجار العظيم الذي به أصبح الكون وجودًا، والحياة تملؤه شيئًا ولا شيء، فتكوّرت النّجوم والكواكب، وكانت الأرض المكان المناسب لحياة الأزواج التي خُلقت منها خلقا: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}[219].

ولأنَّ الأرض مكان خلق الخلائق فكانت الأجناس والأنواع جمادًا ونباتًا وحيوانًا وبشرًا، وما لا نعلم، خَلقٌ من تراب، ولكن لكلّ طينته التي تميّزه

---

[218] نوح: 17.

[219] الذاريات: 49.

عن غيره، وفقًا لمشيئة الخالق: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}[220].

ومع أنَّ خلق الإنسان الأوّل: (آدم) من ترابٍ، فإنَّه لم يكن ترابًا، بل بشر في أحسن تقويم، هيئة وصورة وعقل: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ}[221]، أي: إنَّ الإنس الذي خُلق من طين ليس بطينٍ، وهنا يكمن الإعجاز الخلقي، فلو كان الإنسان طينًا لكان جدارًا.

ومع أنَّنا نتحدّث عن الإنسان الأوّل: (آدم) لكنَّنا نشير به إلى الجنس البشري، الذي من البدء كان خلقه على الزّوجيَّة (آدم وزوجه)، مثله مثل بقيّة الخلائق كلّها خُلقت على الزّوجيّة الثنائيّة، ولا شيء خُلق على الفرديَّة: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)؛ ولذلك فيصعب علينا الأخذ القاطع بما لم ينزّل قرآنا، وهو: أنَّ حواء من ضلع آدم فكيف لنا بذكر حواء، واسم حواء لم ينزل في القرآن ولا مرّة واحدة؟ بل قال القرآن: (زوجك) ولم يقل: (زوجتك)، ومن هنا فالفرق كبير بين المفهومين فزوجك: يشير إلى دلالة التسوية الخلقيّة من تراب، أمَّا زوجتك: فأمرها يعود كما يعود أمر خلقك إلى نطفة: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}[222]، ثمّ أكّد على أنَّها: (زوجك)، ولم ترد كلمة: (زوجتك)، ولا مرّة واحدة في القرآن أيضًا: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ}[223].

---

[220] الحجر: 19.

[221] ص: 71.

[222] الأعراف: 19.

[223] طه: 117.

إذن: فخلق الإنسان تطوّر من تراب إلى بشرٍ، وكأنَّه لا علاقة بالمشاهدة بين الصّفات الطينيّة، وصفات الإنسان التي خُلق عليها بشرًا سويًّا، ولكن هذا التطوّر الخلقي نشأ الخلق عليه نشوءًا: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ}[224].

ولأنَّه تعالى خَلق الأزواج كلّها: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}[225]؛ وخَلق الإنسان من بينها في أحسن تقويم، إذن: فقد خَلقَهُ متميّزًا ومتطوّرًا عن بقيَّة الخلائق؛ ليكون على التطوّر إلى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم: (أحسن صُنع، وأحسن قوام، وأحسن صورة) فكيف يقال عنه: إنَّه حيوان متطوّر، فالحيوان وإن تطوّر فلن يكون إلّا حيوانًا، وفي المقابل سيبقى الإنسان إنسانًا وإن انحدر.

ومع أنَّ داروين لم يقل: إنَّ أصل الإنسان قرد، فإنَّ كثيرين نسبوا ذلك إليه، فداروين يرى شبها بين القرد والإنسان وكأنَّهما ابني عمومة، ولكن وإن التبس الموضوع عليه أو على البعض فدائمًا المشبه غير المشبّه به، فأنت دائمًا غير أبيك، وأنا دائمًا غير ابني، وحتى التوأم لكلّ بصمته التي تميّزه عن الآخر؛ فما بالك بمن لم يكن من طينتنا ولا نحن كنّا من طينته.

فالقرد لو تطوّر وأصبح إنسانًا كما كتب البعض ما لم يكتبه داروين؛ لانعدمت القرود من على وجه الأرض، وإنْ قبل من يقبل بذلك فهل يقبل بتطور القرد عند حدّ ما وصفوه به، أم إنَّه ينتظر تطوّرا آخر مجهول الهويّة

---

[224] هود: 61.

[225] النبأ: 8.

والصّفة؟ وكيف للإنسان الذي يعلم بطينة خلقه، وحُسن تقويمه، أن يقبل الانتماء إلى طينة هي أقل شأنًا منه؟

إنَّ الخلق في أحسن تقويم، هو خلق تميّز تفوّقي على كلّ المخلوقات، جن وملائكة، وكائنات أخرى، وإلّا هل هناك من ينكر اصطفاء أبينا آدم نبيًا للملائكة والجن والإنس؟ {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ أَنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[226]، أي: إنَّ الله تعالى قد فضّل آدم على الجميع: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[227]، والأسماء كلّها هي الأسرار التي لم يعلمها الملائكة من قبل؛ حيث أسبقية خلقهم على آدم: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[228]؛ فآدم كونه النّبي أنبأهم بما أنبأه الله به دراية، وهو: (ما يعلمونه من قبل وما لم يعلمونه). {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[229].

ولأنَّ آدم نبي سجد الملائكة له طاعة لأمر الله: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا)، وإلّا هل هناك من يظن أنَّ الملائكة أفضل من آدم؟ لو كان الملائكة هم المفضّلين عند الله على آدم لكان الرّكوع من طرف آدم، وليس الرّكوع له طاعة لله تعالى.

---

[226] البقرة: 30.

[227] البقرة: 31.

[228] البقرة: 33.

[229] البقرة: 34.

وعليه: كيف يَقبل عقل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وفضّله على الملائكة بأنَّه قد تطوّر من كائن حيواني إلى بشرٍ؟ مع علمه أنَّه قد خُلق في أحسن تقويم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[230].

فالعالم داروين مع أنَّه لم يجزم بقوله: إنَّ الإنسان والقرد يعودان لأصل واحد إثباتًا، فإنَّه يظن أنَّهما يعودان من خلال التشابه في بعض صفات الهياكل التي أخضعت للمقارنة البحثيَّة.

ونحن نقول: السّلالات خُلقت خلقًا مستقلًّا، ولكلٍّ خصوصيَّته فلا الذّباب يصبح جرادًا، ولا القمح يصبح شعيرًا، ولا التفاح يصبح ليمونًا، ولا الحمير تصبح خيلًا، ولا الكلاب تصبح ذئابًا، بل لكلّ سلالته، ولكلّ سلالة جيناتها التي تميّزها عن الجينات والسّلالات الأخرى، ومع ذلك فإنْ تشابهت المخلوقات فالخالق واحد، ولكن التشابه لا يدلّ إلّا على تباعد الخصائص، ووجود الاختلاف؛ حيث لا تطابق، ولهذا فمهما تشابه المتشابهون فهناك شيء مختلف بينهم، وهو ما يميّزهم عن بعضهم.

وعليه:

هل يليق بنا أن نقول: كلّ من لديه معدة هو من أصل واحد؟ وكلّ ما له فقرات هو من جنس واحد؟ وكلّ من لديه جهاز تنفسي هو من نوع واحد؟ وكلّ من لديه عقل يعود إلى جدّ واحد؟

فمع أنَّ العقل يميّز خلق الإنسان، فإنَّ كلّ الكائنات لها عقول، ولها من الذّكاء ما يميّزها فالطيّور لو لم تعقل ما بنت أعشاشها، والنّحل لو لم يعقل

---

[230] التين: 4.

ما نظّم علاقاته تنظيمًا رفيعًا، والفئران لها من الذّكاء ما يتعب القطط، وتحايل الثّعالب يرهق الحرّاس، وذكاء الغربان تجاوز معرفة الإنسان: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[231].

وكذلك مع أنَّ الخالق خَلق الإنسان في أحسن تقويم، فإنَّه لم يقصر حُسن خَلقه على الإنسان وحده، بل كلّ شيء خَلقه على الحُسن، فما يره البعض على غير حُسنٍ، يراه البعض على الحُسن تماما: {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[232]، أي: أتقن الله الحُسن في كلّ شيء خلقه، كونًا ومخلوقات كونيَة، وفي مقدّمتها جاء خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثمّ كان الحُسن والجمال والزّينة في بقيَّة الخلائق: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}[233]؛ ولهذا فكلّ شيء خُلق على القانون الخلقي موزونًا، ولا شيء يُخلق عبثًا: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[234].

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، إذن: لا يوجد مخلوق أفضل منه، ومن ثمّ فمن يُسلّم بالتطوّر الحيواني المزعوم ينبغي عليه أن ينتظر تطوّرًا آخر، ولكن ليعلم أنَّه لا أفضليّة بعد خلق الإنسان الذي خُلق على الزوجيّة كغيره من الخلائق: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}[235].

---

[231] المائدة" 31.

[232] السجدة: 7.

[233] النحل: 8.

[234] المؤمنون: 14.

[235] الشورى: 11.

ومع أنَّ لنظريَّة داروين باعًا في علم النَّبات والحيوان، وما قدّمته من مقولات تتعلّق بخلق الإنسان ونشوئه وتطوّره، فظل للتقدّم العلمي كلمته في تغيير كثير من المقولات الداروينيّة، وبخاصّة التي ترى: أنَّ الفناء والهلاك للكائنات الضّعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية وفقا لقانون: (البقاء للأصلح)؛ حيث يبقى الكائن القوي السّليم الذي يورث صفاته القويّة لذريّته، وتتجمّع الصّفات القويّة مع مرور الزّمن مكوّنة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو (النّشوء) الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصّفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطوّر ارتقاء[236]، ولا شكّ أنَّ الضّعف والوهن لا يولّد القوَّة الفاعلة، ولا يجعل بقاءً صالحًا، وأنَّ القوَّة المناعيّة المتوازنة تمكّن أصحابها من البقاء الأفضل، ولكن فوق هذا وذاك سيظل للتقدّم العلمي كلمته في تفادي الضّعف وتغييره إلى قوَّة، وكما نعتقد سيكون الزّمن كفيلًا بذلك: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[237].

ومع أنَّ ما نظَّرَ له داروين مؤسّس على البحث والتقصي العلمي، فإنَّ تطوّر العلوم وصل إلى اكتشاف كثير من أسرار خريطة الجينات الوراثيَّة، وبإمكانه تحسينها واستبدال المشوّه منها بما هو أرقى؛ من أجل نشوء بشري وحيواني ونباتي خالٍ من العلل، وهكذا سيكون التطوّر من حسنٍ إلى أحسن، ومن أفضلٍ إلى ما هو أفضل منه، ومن ثمَّ في الوقت الذي فيه البيئة تُلوّث العلم فيه يتطوّر، حتى يمكّن من تطهيرها إن حَسُنت إداراته دراية.

---

[236] تشارلز داروين، أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي)، ترجمة: مجدي محمود، 2004، ص 154 – 157.

[237] الإسراء: 85.

ومع أنَّ سلسلة التكاثر الخلقي متّصلة ولم تنقطع، فإنَّ معرفة الأثر المشترك الذي يعود إليه الجنس البشري ومن قالوا عنه الشبيه (الشمبانزي) لم يعثر عليه بعد؛ لتكون الإجابة حلقة ربط بين ما تمّ اكتشافه من معرفة، وما لم يتمّ اكتشافه؛ ولذلك فالحلقة ستظل مفقودة، وبخاصّة أنَّ الطبيعة تتعرّض للزلازل والبراكين كما تعرّضت للطوفان (زمن نوح)، وهذه الحقائق من علل إخفاء الأثر الذي على أثرها يمكن أن يظل حلقة مفقودة، أو أنَّه يجيب عن افتراضات من لا يرى إلّا ما يراه مشاهدة.

أمَّا القول: إنَّ داروين قال: إنَّ أصل الإنسان قرد فهو بحقّ لم يقله، ولكن كثيرين البسوه قميصًا غير قميصه، فهو لم يتحدّث عن الصّلة بين الإنسان والقرد إلّا تشابهًا، فمحتوى قوله: (يوجد شبه بين الأثر العظمي للإنسان والقرد وكأنَّهما يعودان إلى أصل واحد)، وهذا القول حفّز البحاث على بذل المزيد من الجهد من أجل المزيد المعرفي، وبخاصّة أنَّ داروين لم يقتصر رأيه على العلاقة التشابهيَّة بين الإنسان والقرد، بل وسّع استنتاجاته بقوله: إنَّ كلّ الفصائل لها جد مشترك (قديم)؛ ومع ذلك فما قاله داروين لا يزيد عن كونه افتراضًا محفّزًا على مزيد من البحث العلمي والتقصّي الدّقيق.

ولكن ما قاله داروين قد فتح بابًا للتّحاور والنّقاش وتبادل الحُجج العلميَّة والمنطقيَّة، وتبادل ما يتوافر من مسلّمات ودلائل يمكن أن تصحّح معلومات خاطئة بمعلومات صائبة، ومن ثمّ فلا احتكار للمعرفة، وبخاصّة بعد اكتشاف خريطة هندسة الجينات الوراثيّة التي أضافت إلى معارف الإنسان ما لم يكن يعرفه من قبل، ومن ثمَّ يمكن من خلالها الوصول إلى مزيد من التفسير

العلمي المؤدّي إلى معرفة الحلقة المفقودة، أو تسلسل حلقات الوجود الخلقي أجناسًا وأنواعًا وسلالاتً؛ حيث لا حلقة مفقودة.

ولأنَّ الخالق واحد، إذن: فلا استغراب، ولا تعجّب من وجود التشابه بين خلائق الخالق.

ومن ثمّ فحيثما يوجد التشابه يوجد الاختلاف، ولكلٍّ منهما أهمية، فأهمية الاختلاف حتى وإن كان أقل من 1%؛ أنَّه الدّليل على وجود الخصوصيَّة والتميّز والتنوّع.

أمَّا أهميَّة التشابه بين الكائنات والإنسان فستكون نتائج التجارب التي تجري عليها (على تلك الكائنات الشبيهة) ذات أهميَّة عظيمة على الإنسان، سواء من حيث اكتشاف الأمراض والوقاية منها، أم من حيث علاجها، فإجراء التجارب على الحيوانات المتشابهة جينيًّا مع الإنسان ذات فائدة على صحة الإنسان، وسلامة بيئته التي تحوطه وتحتضنه.

ومع أنَّ التحدّث في السّابق كان عن وجود تشابه كبير بين الإنسان والشمبانزي، فإنَّ الدّراسات العلميَّة الحديثة أثبتت أيضًا وجود علاقة كبيرة بين جينات الفأر والإنسان، وقد بلغت نسبة التشابه الجيني بينهما 99%، وهي بالتمام مثل النّسبة الجينيّة بين الإنسان والشمبانزي اللذين يشتركان في

جينات متشابهة بنسبة 99% أيضًا[238]؛ ولهذا ستتعزّز ثقة الباحثين فيما يجرونه من تجارب مختبريَّة لدراسة الأمراض التي تلمّ بالبشر[239].

ومهما كان التشابه متقاربًا في أيّ صفة من صفات الخلائق بين السّلالات والأنواع والكائنات، فهو لا يعني تقاربًا في كلّ الصّفات والخصائص، فالشمبانزي والفأر والإنسان وإن كان التقارب بينهم في الجينات الوراثيَّة كبيرًا جدًّا، ولكن سيظل الفرق بينهم واسعًا في صفات أخرى، سواء أكانت صفة شكل، أم هيئة، أم معرفة، أم علاقة، أم ثقافة وحضارة، أم تذكر، أم تدبّر، أم تفكّر، أم دراية، أو حتى سكون وحركة؛ ولذا فلو كان للإنسان مئات الصّفات، وتشابه مع غيره من الكائنات الأخرى في عدد منها؛ فعلى ماذا يدلّ ذلك؟ بلا شكّ إنَّه لا يدلّ إلّا على وجود اختلافات كبيرة.

ولهذا فمهما تقاربت الصّفات بين الخلائق فلا يمكن أن يتساوى البائع والمباع، ولا يمكن أن يتساوى الصيّاد والطريدة؛ فالفأر سيظل فأرًا بعيد الصّفات عن صفات الإنسان، كما تبعد عنه صفات القرد الخاصّة به، ولكن هذا لا يعني تقليل شأن التشابه الذي تمّ اكتشافه في الجينات الوراثيّة بين الإنسان والفأر والقرد، بل ما ثبت من تشابه ستكون نتائج تجاربه بلا شكّ ذات فائدة على الإنسان.

---

[238] أميمة خفاجي، قضايا وآراء، جامعة قناة السويس، 24 أغسطس، 2003، العدد 42629.

[239] جريدة الشرق الأوسط الخميس 30 رمضان 1423 هـ 5 ديسمبر 2002 العدد 8773.

ومع أنَّ البحاث يسعون إلى مزيد من البحث العلمي من أجل معرفة الحلقة المفقودة، فإنَّ معظم المتشابهات المشتركة بين الإنسان وبقيَّة الحيوانات هي متماثلة بالتّمام، فكلّها تتوالد وتتكاثر تزاوجًا، وأجهزتها لا تختلف وظيفة، فالكليتان هما الكليتان وظيفةً، والمعدة هي المعدة، والجهاز التنفسي هو الجهاز التنفسي، والرّضاعة هي الرّضاعة، وهكذا بقية الحواس هي الحواس، والحمل هو الحمل: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[240]، وغيرها كثير؛ ولذا فلا حلقة مفقودة بين المتشابهات، بل الحلقة المفقودة؛ إذ لا إمكانية للتطابق.

ومع أنَّ داروين قد بحث وفسّر وفتح بابًا أمام من يجتهد، حتى يتمّ اكتشاف مصادر حلقات السّلالات النوعيَّة، والجينات الوراثيَّة للأجناس والأنواع، فإنَّ هذا لا يعني أن يُضرب بقول الخالق عُرْضَ الحائط وهو المنزّل للحقائق التي يتساءلون عنها قبل أن يخلق داروين الذي أصبح عنوانًا في ميادين علوم الحياة.

فالله قال: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[241]، فقوله: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ) لم يستثنِ شيئًا إلّا وقد خلقه على الزّوجية خلقًا مستقلًّا عن الأزواج الأخرى، ثمّ قال: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[242]. إنَّها عمليَّة خلقية مُحكمة لم تترك ثغرة لنفوذ نوع إلى نوع آخر إلّا وفقا لسلالته؛ ولذلك لا تشويه لخلق الله، مع أنَّ البشر بإمكانهم

---

[240] الزمر: 6.

[241] الذاريات: 49.

[242] الزمر: 6.

التدخل للتّشويه الشكلي والظاهري، أمَّا الجينات وإن تمّ التلاعب بها، فإنَّها ستظل خاصّة مثل البصمة.

العقلُ دراية بين قوّة وضعف:

العقل مركز الإدراك الذي به يتم الاقدام على ما يجب والانتهاء عمَّا لا يجب، وهو الذي لو لم يكن عقلًا سليمًا ما كانت الدِّراية بالمعجز والمستحيل وعلاقتهما بالممكن علمًا ومعرفة؛ ولذا فقرار الإنسان في دائرة التخيير بيده، وبالتّالي يمكنه أن يستخدم حُسن التقويم فيما يجب، وهنا تكمن القوَّة، ويمكن أن يستخدمه فيما لا يجب، وهنا يكمن الضّعف.

فالإنسان دائمًا إنْ أراد تحدّي الصّعاب فعليه بامتلاك القوَّة، والسّعي على استمدادها من مصادرها حفاظًا على بقاء حُسن التقويم، ولكن كيف تستمدّ القوَّة من القوي والله قال: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}؟

الإنسان في أساس خلقه خُلق على القوَّة: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[243]، وأحسن تقويم، وأحسن تصويب، وأحسن خِلقة ممّا خلق من المخلوقات كلّها، فكلّ المخلوقات من ملائكة وجنّ وغيرها جاء الإنسان مفضّلًا عليها في الخَلق والتقويم، فالإنسان كونه مخلوقًا مفضّلًا لم يكن على الضّعف، ولكن في غير مقارنة، إنَّه الضّعيف أمام قوَّة الخالق تعالى، وهو الضّعيف أمام الشّهوة، أي: عندما تغالبه الشّهوة يصبح ضعيفًا؛ ذلك لأنَّ الشّهوة هي الضّعف الذي خُلق الإنسان عليه، فإن سيطرت الشّهوة على عقل الإنسان وقلبه كان الإنسان على طبيعة خلق الشهوة ضعيفًا، ولكن إن

[243] التين: 4.

هيمن العقل والقلب على الشّهوة فالإنسان لا يكون إلّا قويًّا، وهذه صفات لا تستمدّ إلّا من صفات الخالق، ولأنَّها تستمدّ من صفاته تعالى فصفاته قوَّة، وهي: مصدر لكلّ قوَّة.

ومن ثمّ فالاستغراب أن يغترّ الإنسان بنفسه، فلا يلتفت إلى ما يجب أن يَقدِم عليه قوَّة، وما يجب أن ينتهي عنه قوَّة، وهنا يكمن الضّعف: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}[244].

ولأنَّ الإنسان في أساس خلقه قد خُلق على القوَّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَخُذْهَا بِقوَّة وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}[245].

ولسائل أن يسأل:

ومن الذي يستطيع أن يأخذ ما يأخذه بقوَّة؟

أقول: الذي يمتلك قوَّة تمكّنه من الأخذ أخذًا، ولأنَّ القوّي تعالى يعلم أنَّ المخاطب قويٌّ (موسى)؛ قال له: (فَخُذْهَا بِقوَّة)، ولأنَّه قوي، قال له: (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)، أي: عليك يا موسى أن تأخذها بقوَّة، وعليك أن تأمر قومك بقوَّة الأخذ بأحسنها، أي: إنَّ القوي الأوّل هو الله، فأمر موسى بقوَّة الأخذ فأخذها موسى بقوَّة طاعة للأمر، ثمّ إنَّ موسى بقوَّة أخذه أمر قومه أن يأخذوا بأحسنها.

---

[244] الانفطار: 6، 7.

[245] الأعراف: 145.

ومن غير مقارنة كلّ المخلوقات هي على الضّعف أمام قوّة الخالق، ولكن أقوى المخلوقات وأفضلها هو الإنسان: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ}[246]، اصطفاه مفضّلا على الملائكة والجن: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[247].

ومع أنَّ آدم تمّ اصطفاؤه نبيًّا للملائكة والجنّ والإنس، فإنَّ الله أهبطه على الأرض، بعد خطيئة ألمت به وزوجه، بأسباب الشّهوة التي أضعفته فكان على الأرض نبيًّا قويًّا، بقوّة النبأ الذي سجدت له الملائكة.

وعليه: فالإنسان بقوّة الشّهوة يضعف، فيخطئ، كما أخطأ أبونا آدم، وبقوّة الإيمان الإنسان يقوى فيستغفر، ويتوب؛ ولذلك فالأقوياء لا خوف عليهم: (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولكن الخوف على الضّعفاء الذين فقدوا القوّة.

ولأنَّ نشوء الإنسان كان خلقًا معجزًا في أحسن تقويم؛ فبه كان الإنسان مفضّلا، ولكن لأنَّه في دائرة التخيير فقد لا يحافظ على تفضيله، ويلقي بيديه إلى التهلكة: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}[248]، وهنا يكمن الضّعف، ومع ذلك فالضّعف قابل للتغيير إذا ما تبنّت أيدي الأقوياء أيدي الضّعفاء، أي: إنَّ الضّعف إذا لحق البعض بما عملت أيديهم فينبغي للبعض الذي يده قويَّة أن يتحمّل مسؤوليّته تجاه الضّعفاء: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى

---

[246] آل عمران: 33.

[247] البقرة: 34.

[248] البقرة: 159.

بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}[249]، إنَّه التفضيل الذي ينبغي أن يقدّر من قبل القادرين رزقًا فيأخذوا بأيدي من ضعف جهدًا أو معرفةً أو مالًا، حتى ينهض ارتقاء إلى ما يجب أن يكون عليه عملًا ومعرفةً.

ومع أنَّه التفضيل، فإنَّه كما يكون على (التميّز) يكون على (التمييز) فالتميّز: نشوء خاصيّة قد تكون خلقية كما هو تميّز البشر عن بقية الخلائق، وقد تكون الخاصيّة تميّزًا بالعمل: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[250].

أمَّا التمييز: فمنه التمييز الخَلقي، ومنه بأيدي النَّاس فالخَلقي فيه تساوي ميز؛ حيث كلٌّ مميّز بخاصيّة: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}[251]، فلا ينبغي أن يتمنّى الذّكر أن لو خُلق أنثى، ولا ينبغي أن تتمنى الأنثى أن لو خلقت ذكرًا، لأنَّ كلّا منهما خُلق مفضّلًا بما خُلق عليه من نوع (ذكر وأنثى).

أمَّا التمييز الذي بأيدي النَّاس فهو المتعارض مع التفضيل الذي ينبغي أن ينشأ الخَلق عليه؛ فالخالق فضّل النّوعين (الذّكر والأنثى) ونهى عن التفضيل بغير حقّ: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)، فالتمييز بين النَّاس يمكن أن يكون موجبًا، ويمكن أن يكون سالبًا، فإن كان بالعمل فلا شكّ الذي يعمل غير الذي لا يعمل، ولكن إن كان على حساب ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليَّات فلا ينبغي، وهنا تكمن المظالم

---

[249] النحل: 71.

[250] الزلزلة: 7، 8.

[251] النساء: 32.

بين الذين يدرون والذين لا يدرون، وبين الذين يدركون والذين لا يدركون، وبين الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

الدِّراية العقليَّة بين بداية ونهاية.

بما أنَّه لكلِّ بداية نهاية فلا شكَّ أنَّ للدّراية العقليَّة بداية ونهاية، وبدايتها وعيًا كانت المعجزة، وهي: أوَّل معجزات محمّد عليه الصَّلاة والسَّلام، الذي خصَّه الله بمعجزة الدّراية التي نسخت أميَّته وحلّت محلَّها دراية، فمحمَّد بعد أن كان أميًّا أصبح يدري بعلم الغيب وأمر العليم الذي أمره بالقراءة وهو يعلم أنَّه لم يكن بقارئ حتى قرأ دراية تامّة؛ ولذا فبداية الدراية العقليّة لها توقيت زمني كونها شيء يُخلق أو يُفعل أو يؤخذ فيتَّبع ممّا يجعل البداية نقطة القياس الأولى للمعرفة والوعي وكذلك للتمدّد طولًا وعرضًا وارتفاعًا ووزنًا وسرعةً، ويجعل نقطة النّهاية قاطعة؛ إذ لا نشوء ولا تمدّد ولا انكماش ولا سرعة من بعدها ولا دراية.

فالبداية والنّهاية علامتان لحصر الوجود المتّسع وعدّه عدًّا، فلا شيء قبل البداية إلّا المبدئ، ولا شيء بعد النّهاية إلّا الآخر المنهي.

ولأنَّ البداية والنّهاية لا تنشأ إلّا في حيّزٍ فهي تحوط الأشياء وجودًا في الزّمان والمكان؛ حيث كلّ شيء خُلق، أو سيخلق لا يكون محصورًا إلّا بين قوسيها دراية.

ومع أنَّ البداية تُعدُّ نقطة الصّعوبة، فإنَّها في النّهاية لا تعدُّ نقطة الاستحالة، فالتعلّم بداية تواجهه المصاعب كما تواجه عمليَّة التذكّر والتدبّر

والتفكّر والإبداع، ولكن نهاية الأهداف تنجز، والأغراض تتحقّق، والغايات تُبلغ، والمأمول يُنال.

وعليه:

فمثلما لكلّ شيء مواقيته، فأنَّ لكلّ شيء توقيته بداية ونهاية، ولا شيء يبدأ أو ينتهي إلّا ولحظته قد بدأت تمدّدًا أو انكماشًا، أو أنَّ نهايته قد بدأت صعودًا أو هبوطًا: (متوقَّع أو غير متوقَّع).

فبداية الكون كما يعتقد علماء الفيزياء قد بدأت انفجارًا عظيمًا، ولكن وإن اختلفنا فلا اختلاف معهم على أنَّ لكلّ شيء بداية ونهاية، أمَّا كيف تكون النّهاية؟ ومتى؟ فهذه علم تهيمن عليه الفرضيَّات لا الحقائق.

وإلّا هل هناك من يستطيع إدراك النّهاية الكونيّة والكون يتمدّد متسارعًا، في مقابل قدرات محدودة، وعلم سرعته لا تواكب سرعة التمدّد الكوني؟

ومع أنَّ علماء الفيزياء يرون الكون قد بدأ انفجارًا، ولا خالق له، فإنَّ العقل يطرح تساؤلات بأسباب الحيرة التي تولّدت مِن حكمهم هذا: هل يعقل أن يخلق المخلوق لو لم يكن من ورائه خالق؟ فإن أجزنا هذا القول كما يعتقد البعض فعلينا بنفي خلقنا للأشياء التي صنعت بأيدينا، وإلّا ما هي المبررات التي تجيز خلقنا للأشياء صناعة، ولا تجيز خلق ما هو أعظم من خلقنا بأيدينا؟ وعلينا أن نتساءل:

لماذا لم نستطع معرفة سرعة حركة الكون المتسارع في تمدّده؟ أي: لو لم يكن من وراء الكون مسيّرًا له بالقوَّة المطلقة وهو ما ندريه، فهل يمكن له

أن يسيّر وهو على هذه الضخامة المستمرّة في التضخّم؟ وإذا كانت الإجابة أنَّ الكون يتمدّد ويُسيّر بقوَّة الانفجار العظيم فمن الذي فجّر ذلك المنفجر، حتى أصبح الانفجار بداية الخلق الكوني المتسارع تمدّدًا؟ أم إنَّ الانفجار لا يزيد عن كونه صدفة لا غير؟ وحتى إن كان مصادفة فهل يمكن أن تحدث المصادفات لو لم يكن من ورائها مدبّر؟

وبما إنَّ الحياة بداية والموت من بعدها يلاحقها فمَن الذي يحيي ويميت؟ أم إنَّ الكون هو الذي يحيي ويميت؟ وكيف له أن يحيي ويميت وكلّ ما فيه يلاحقه الموت، ومن بعده يصبح الكون برمّته معرّضًا للنّهاية تجمّدًا، أو انكماشًا، أو انفجارًا، ثمّ رتقًا من جديد؟

ومع ذلك يجيب البعض بقوله:

لا داعي لطرح هذه التساؤلات، ولا داعي حتّى لقبول تساؤل منها؛ ذلك فإن قبلنا سؤالًا واحدًا فقد ننجرّ إلى قبول مئات التساؤلات، ولهذا بالنّسبة لهم بدأ الكون والوجود من ذلك الانفجار، ولا داعي لأيّ أسئلة عمّا قبله.

أمَّا نحن، دراية فنقول:

تكفينا هذه الإجابة، ومن يرى غير ذلك فمن حقّه أن يتساءل، ولكن لن يجد إجابة غير هذه الإجابة، حتّى وإن أعاد طرح السؤال:

كيف تكون البداية من لا شيء والانفجار العظيم من ذرّة؟

قال الفيزيائيون:

إنَّ الكون بداية قد خُلق من لا شيء، ونحن قَبِلنا بذلك إن كان مقصدهم أنَّ اللاشيء هو ذلك المتناهي في الدّقة والصّغر، ولكن كيف لنا بقبول غيره إن كان مقصدهم باللاشيء (لا وجود)؟ وهم في هذا المثال كمن يقول: صُنعت المصنوعات (كلّ المصنوعات التقنية والتقليدية) من غير مواد خام، ومن غير مواد مصنّعة، ومن غير صانع، ومن يقبل بهذا أو يصدّقه فلا شكّ أنَّه يقبل بقولهم: إنَّ الكون قد خُلق من لا شيء ومن غير خالق.

نعم إنَّهم بحثوا فعرفوا، فأصابوا، وفي المقابل: نعم إنَّهم بحثوا فأخطأوا، ومن بين هذا وذاك وجب البحث المتّصل ولا انقطاع، حتّى يعلم الجميع ويتبيّن الحقائق دراية دليلًا وشواهد.

ومن ثمّ فلا اختلاف على أنَّ الوجود أوّلًا، ثمّ الموت ثانيًا، وثالثًا من بعد الموت عدم، ورابعًا من بعده موت الموت، وخامسًا إحياء وإبقاء إذ: (لا نهاية)، أي: في عالم الوجود الدنيوي لكلّ بداية نهاية، ولكن في عالم الوجود الباقي، فلا نهاية لبداية (بقاء بلا نهاية).

إذن: فالبداية كان الوجود كونًا مُرتقًا، ثمّ فُتق فأصبح أكوانًا، ونهاية سَتُرتق الأكوان كونًا باقيًا؛ وذلك عندما يُرتق الزّمان مع المكان ولا ينفصلان نهاية، وهذا يعني: أنَّ للزّمان الدّنيوي نهاية، وأنَّ للزّمان الآخر بداية بلا نهاية؛ حيث تبقى الحياة إعجازًا عند لحظة البداية الدّائمة.

ومن خلال تفسيرنا دراية للوجود الكوني المتمدّد بقوَّة الطّاقة الهائلة، نعتقد أنَّ حيويّته والحرارة المصاحبة له ستؤولان به إلى الانكماش بعد فتور من بعده برودة تجعله عائدًا إلى أماكن رتقه، فيصبح وكأنَّه لم يُفتق من قبل.

ولهذا فرؤية العلماء تميل إلى وضع يُسمى (التجمّد الكبير)؛ حيث يستمرّ الكون في التّوسع، وفي النّهاية ينمو إلى حدّ يصبح معه المتوافر من الغازات خفيفًا لا يكفي لتكوين نجوم، فيبرد إلى نقطة يفقد عندها الوقت كلّ معنى؛ إذ لا شيء يحدث بعد ذلك[252].

ومن ثمّ فالانكماش قوّة هائلة تطوي ذلك التمدّد الهائل الذي تسارع حتى النّهاية، التي لا نهاية من بعدها: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا أَنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[253].

ومع أنَّ البداية بداية وجود، فإنَّ كيفيَّة البداية الوجوديَّة لا أحد يعلمها سوى التحدّث عن ذلك الانفجار العظيم الذي يعتقد البعض أنَّه البداية غير المسبوقة ببداية، ولكن بالنّسبة لنا دراية إن أجزنا وجود الانفجار العظيم فلا نجيزه إلّا نهاية لذلك المنفجر، وليس بداية غير مسبوقة ببداية.

ومع أنَّ الوجود الكوني لم تسبقه أيدٍ خلّاقة، فإنَّه كان مسبوقًا بخالق الأيدي؛ ولذلك كان خلق الكون أمرًا مفعولًا بداية ونهاية، ولم يكن بأمرٍ يُفعل، وهذا الأمر لا يعني أنَّ الأمر المفعول قد حدث وانتهى، ولكنَّه يعني: أنَّ الخلّاق لا يتوقّف عن الخلق.

---

[252] الأنباء، من الانفجار الكبير إلى التجمّد الكبير، كيف نشأ الكون، الأربعاء 22 أغسطس 2012م.

[252] الأنبياء 104.

وبما إنَّ بداية الكون كما يرها المنظّر الفيزيائي لورنس كراوس Laurence Krauss من اللاشيء كما جاء في كتابه: Universe from nothing إذن: فلا بدّ من إعادة التساؤل:

كيف تكون البداية من اللاشيء والكون متفجّر من ذرة؟ وإذا عَدَدْنَا الانفجار العظيم هو بداية الوجود الكوني فإذن: الكون بدايته انفجار، وفي المقابل إذا عددنا الوجود قد خُلق وجاء من بعده نشوء، فَلِمَ لا تكون النّهاية هي: الرّتق من بعد الانفتاق؟

ولا خلاف على أنَّ كلّ ما نعرفه وما لا نعرفه قد ظهر إلى الوجود بالانفجار الكبير، أو الانفتاق العظيم، ولا خلاف مع دراية وأدلة تؤكّد نهاية الكون، كما جاء في قول العلماء الأمريكان: "إنَّنا سائرون نحو نهايةٍ لا تقل إثارة عن البداية"[254].

فالبداية سواء أكانت تمدّدًا أم انكماشًا: (في الاتجاه الموجب، أم في الاتجاه السّالب) فلا بدّ لها من نهاية؛ ولذلك فيمكننا أن نعد ما نشاء من الأعداد للخلف (سلبًا) كما نعدّها للأمام (إيجابًا) فالعدّ للأمام يوصل إلى رقمٍ موجبٍ كبيرٍ جدًّا، والعدُّ إلى الخلف يوصل إلى رقمٍ سالبٍ كبيرٍ جدًا، وفي كلتا الحالتين لكلّ شيء بداية ونهاية، حتى وإن قصرت قدراتنا عن التوقّف عندها.

254 el of the Converse Reborn Endlessly in New Modsmos, www.nationalgeographic.com, April 25, 2002 p 127.

فالكون بما فيه من كواكب ونجوم وفراغ وخلاء وطاقة ومجرّات، له بداية (انفجار عظيم) أو (انفتاق عظيم) وهذه هي النّقطة الصّفريَّة التي بدأ تمدّد الأكوان منها، والتي سيعود إليها الكون منكمشًا؛ حيث انتهاؤه إلى الحجم الذي منه فُتق وبدأ امتدادًا، وهذا التفسير قد ذكّرني بحديث جرى بيني وبين أحد أساتذة الفلسفة حينما: سألته أين مكان الإقامة؟

قال: مؤقتا في مدينة طرابلس.

وأين تكون الإقامة الدّائمة؟

في الخرطوم.

ألا تعتقد أنَّ وجودك مؤقتٌ أينما كنت؟

قال: نعم لكلّ بداية نهاية. لقد جئت من الخرطوم وسأعود إليه.

قلت: إن لم تحدث (لن).

نعم، إنَّ (لن) تحدث رغمًا عنَّا، وعن حساباتنا وخططنا؛ ولذا فقد ترتبط النّهاية بمكان البداية، وقد تنفصل عنه.

فقلت:

معظم الطيور لا تعود إلى أعشاشها بعد أن تغادرها إلّا الكون سيعود إلى عُشّه بعد أن فارقه انفتاقًا: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا أَنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[255].

[255] الأنبياء: 104.

هل تعتقد يقينًا كما أعتقد أنَّ لكلّ وجودٍ نهاية؟

نعم، لا نهاية إلّا لوجودٍ.

الآن فهمت بحقّ، لا بدّ أن يكون الوجود أوَّلًا، ثمّ العدم ثانيًا.

قلت: لا. العدم ثالثًا.

فقال: وماذا ثانيًا؟

الموت، ثمّ العدم.

إذن: فالبعث رابعًا.

فقلت لا: بل موت الموت رابعًا، ثمّ البعث خامسًا.

وماذا سادسًا؟

نهاية النّهاية.

فقال نعم: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[256].

ثمّ سأل:

وما الفرق بين موت الموت، ونهاية النّهاية؟

موت الموت: من أجل الحياة، أمَّا نهاية النّهاية: فمن أجل البقاء الذي يحتوي الزّمان.

---

[256] الرّحمن: 26، 27.

فقال، إذن: الذين يعتقدون في وجود اللامتناهي رياضيًّا، اعتقادهم سراب، ثمّ سأل:

وهل تعتقد أنَّ اللامتناهي موجود؟

مع أنَّ أهل الرّياضيَّات عندما يعجزون عن بلوغ النّهايات فلا يرون إلّا ما لا نهاية، فإنَّ المنطق العلمي وبخاصّة الرّياضي منه، لا يعترف بالمسلّمات إلّا بعد إثبات ولأنَّني لا أرى مالا نهاية في دائرة الممكن، إذن: فكيف لهم بفرضيّة اللانهاية في الوقت الذي فيه علماء الفيزياء والفلك قد أجمعوا علميًّا على وجود النّهاية: (انكماشًا أم تجمّدًا أم انفجارًا؟)

ومع ذلك فإنْ جعل أهل المنطق الرّياضي أنَّ اللامتناهي مسلّمات، فإنَّهم قد اعترفوا بأنَّه مثبت، ومن ثمَّ فإن كان مثبتًا كان موجودًا، وإن كان موجودًا فله بداية ونهاية، ومن هنا فلن يكون اللامتناهي إلّا افتراضًا رياضيًّا: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[257].

إذن: فلا شيء على أرض الوجود إلّا وله بدية ونهاية، سواء تَمكّنَّا من الوقوف عندها ودرايته، أم إنَّ قدراتنا الإدراكيَّة قد قصرت عنها؛ ولذلك فللنّهار بداية ونهاية، ولليل بداية ونهاية، وللعمر بداية ونهاية، وللتفكير بداية ونهاية، وللوجود كلّه بداية ونهاية، ولهذا فلا تستطيع قدراتنا العقليَّة المحدودة أن تكتشف النّهايات الواسعة.

لذا؛ فاللانهاية لا وجود لها إلّا افتراضًا، ولا توجد معادلات رياضيَّة تثبتها تجربة أو مشاهدة أو ملاحظة، أو قياسًا، فعلى سبيل المثال: إذا كان

[257] الإسراء: 85.

أيّ كم هو نتيجة حاصل الجمع، أو الطرح، أو القسمة، أو الضرب، أو غيرها من المسائل الحسابيَّة، فلا بدّ من الحصول على نتيجة حسابيَّة، وهنا فلا مكان بين العمليات الحسابيَّة للامتناهي إلّا افتراضًا، وإلّا هل هناك كم حسابي يقبل القسمة والجمع والطّرح، ولم تكن له نتيجة (نهاية)؟

وعليه: فلا وجود للانهاية إلّا افتراضا، مثل الافتراض الذي يقول: (يظل المستقيم مستقيما مهما امتدّ)، ولكن هذا الافتراض على أرض الواقع لا مصادق له؛ لأنَّ المستقيم إذا امتدّ على الأرض إلى ما يمكن أن يمتدّ إليه نهاية فلا يمكن أن يرسم مستقيمًا، بل سيرسم على الأرض دائرة، وهكذا حال أيّ مستقيم يبتدئ على الأرض بنقطة وينتهي عند نقطة.

وعليه:

وفقًا للمنطق العلمي فإنَّ لكلّ بداية نهاية، والذي لا بداية ولا نهاية له لا يمكن أن يقبل القسمة ولا الجمع ولا الطرح ولا يؤدّي إلى نتائج علميّة محدّدة، ومن ثمّ فليس له منتصف، أو مركز يحدّد نزوعه وتشتته أو تمركزه ممّا يجعله معدوم التعامل الحسابي.

وبما أنَّ لكلّ شيء بداية واللامتناهي شيء، إذن: فكيف لا تكون له نهاية حتى وإن كنّا نجهلها؛ ولذا فإنْ حاول من يحاول التعامل مع اللانهاية رياضيا فلن يجد له معامل حسابي، وفي المقابل يجده في كلّ ما يقاس بداية ونهاية؛ ولذا تكون البداية والنّهاية من أسس التعامل الحسابي القابل للقياس.

وبناء على ذلك فهل للزّمان بداية ونهاية؟

نعم. له بداية ونهاية، حتى وإن لم نعرف تاريخ بدايته ونهايته؛ ذلك لأنَّنا نعرف من الزّمان ما هو ماض، وما هو حاضر، وما هو مستقبل ممّا يدلّ على قبول الزّمان للقسمة والجمع والطرح: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ}[258].

وعليه:

بما أنَّ النّهار جزء من اليوم، والسّاعة جزء من النّهار، إذن: ألا يكون النّهار واليوم جزآن من الزّمن المتناهي؟ وإذا كان الزّمان متناه فما هو الشيء المتبقي ليوصف بما لا نهاية؟ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ أَنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}[259]؛ فالزّمان أيّامًا وأشهرًا وأعوامًا، مثله مثل الأعداد التي مهما كبرت فأنَّها لا تبتدئ إلّا بالواحد الكمّي ولا تنتهي عددا وكمًّا إلّا به.

الدّراية العقليَّة بين متعرفٍ وغير متعرفٍ

المتعرّف عليه:

المتعرّف عليه، هو: كلّ ما تمّت معرفته وإدراكه بداية ونهاية، وفي المقابل العقل (المتعرّف به) على ذلك الموضوع (المتعرّف عليه) لن يستفيد جديدًا كون الموضوع لا يضيف له شيئًا، ولهذا فإعادة التعرّف لا تضيف للعقل جديدًا وإن أسهمت في تثبيت المعلومة.

---

[258] سورة يونس: 45.

[259] الأعراف: 187.

غير المتعرّف عليه دراية:

عندما يتمكّن العقل من البحث والتقصّي العلمي يُمكِنه التعرّف على الجديد بالمتعرّف به (العقل) في حدود القدرات والاستعدادات كبداية ونهاية إدراكيَّة، وغير المتعرّف عليه، هو: الذي لم يُكتشف بعد حتى يعد معرفة علمية، ولهذا يعد غير المتعرّف عليه بالنّسبة للمدركات العقلية مجهولًا إلى حين، وعندما يتمّ التعرّف على غير المتعرّف عليه، يكتسب العقل معرفة جديدة تضاف لمعارف الإنسان السّابقة معرفة ودراية.

ومن هنا فكلّ معلومة لم يتمّ التعرّف عليها بعد وهي في دائرة الممكن، فلا استحالة بينها وبين التعرّف العقلي، وهذا الأمر يجعل المتعرّف عليه (الموضوع) تحت قبضة المتعرّف به (العقل) إلى النّهاية، ومن ثمّ فكلّ معلومة يعجز الإنسان عن معرفتها تندرج تحت غطاء (غير المتعرّف عليه)؛ وذلك لقصور العقل عن إدراكها والوقوف عند نهايتها، وهكذا فكلّ شيء عرفناه يكون هو (المتعرّف عليه)، وكلّ شيء على قيد الوجود ولم نتمكّن من التعرّف عليه يوصف بـ(غير المتعرّف عليه)؛ كونه موجودًا أو متاحًا إلى حين التمكّن من معرفته بداية ونهاية؛ ولذا فمتى ما تهيأت عقولنا للمعرفة تهيأت المعرفة إلينا.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدكتور عقيل حسين: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (165) مؤلّفا منها: خمس موسوعات.

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية، والتركية.

المؤلّفات

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61. من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62. من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64. من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65. من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66. من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 ـ مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 ـ آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 ـ إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 –كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 – مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطريقة العلمية لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، 2021م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة، 2021م.

164 . أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2021م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشيء دراية.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (164) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/